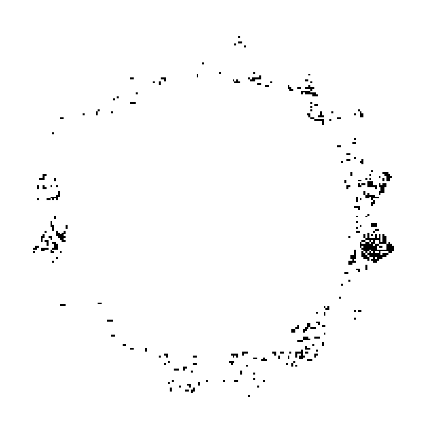
أبي آدم

قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة

الدكتور عبد الصبور شاهين

• العنوان على الانترنت
WWW. akhbarelyom. org\ketab
• البريد الالكتروني
akhbar el yom@akhbarelyom. org

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ شارع الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠



تصميم الغلاف والصفحات الداخلية

عبدالكريم محمود

مقــدمــة

قديماً .. قديماً .. قبل أن يخلق الزمان .. كان الله ولا شيء معه .

ثم أراد الله أن يخلق الخلق ، أو الكون ، فقال : كن ، فكان ماأراده الله زماناً ، ومكاناً .. سموات وأرضين ، ومجرات ، ونجوماً وكواكب ، ودواب.. وما لا نعلم من الموجودات التي أنجزتها القدرة الكُلِّيَّة .

ثم أراد اللّه أن يوجد المخلوق العاقل المؤهل للمعرفة .. فكان الإنسان ..

ولعل هذا هو المعنيُّ بما جاء في الحديث القدسي الذي حفظناه في صغرنا ، والذي يقول اللّه عز وجل فيه عن نفسه : (**كنت كنزاً مخفياً ، فاردت أن أعرف فخلقت الخلق ، فبي عرفوني**)[1] ـ أو كما قال ..

فأما الزمان والمكان فقد خلقا لتحديد ماهية الأشياء ، وقد جعلهما الخالق سبحانه على مرتبتين : غيب ، وشهادة ، وإذا كان عَالَمُ الغيب قد احتجب وراء أستار الزمان والمكان ، لا يعلم حقائقه إلا موجده سبحانه – فإن عالم الشهادة يحمل في تفاصيله ملامح ما مضى من الغيب النسبي ، وهو أيضاً دال على وجود الخالق .. الغيب المطلق .. أو غيب الغيب ، وهكذا نرى حقيقة وجود اللّه في تصاريف قدرته : ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الروم] .. أي : كائننا – وقد احتجب عنا ذو الجلال – نستطيع أن نستجلي وجوده في النظر إلى آثار رحمته .. يكفينا بعض آثار هذه الرحمة لنوقن بوجوده سبحانه ، أما الرحمة فلا

(١) قصد المؤلف بإيراد هذه المقولة الدلالة على قدم الخالق وحداثة الخلق ، وهو معنى ظاهر من النص

سبيل إلى النظر إليها، لأنها صفة من صفات الله ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ . ولعل ذلك بعض معنى الحديث : (جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً ، وأنزل إلى الأرض جزءاً واحداً ، فَمِنْ ذلك الجزء يتراحم الخلق ، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه) .

إن كل ما فى كيان الإنسان ، وواقعه ، وزمانه ، ومكانه هو من آثار رحمة الله ، وحَسْبُ الإنسان أن ينظر فى نفسه ليستيقن بوجود خالقه ، وليتبين آثار رحمته فى خلقه وتسويته وتزويده بالنفخة العلوية التى صار بها متميزاً عن سائر المخلوقات المشاركة فى الحياة الأرضية .

ونحن نخطئ أحياناً حين ننظر إلى الحياة فلا نرى منها غير ذواتنا .. نحن الأناسيّ ، فأما الطير ، والحيوان والحشَر ، وما ضمّه عالم البحار - فكل ذلك مجرد كائنات متحركة ، تظل تتحرك حتى يخمدها الإنسان لينتفع بها ، أو تلقى مصيرها المحتوم فتبيد ، بمشهد من غطرسة الإنسان الذى يتربع على عرش السيادة على غيره من الكائنات .. ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) ﴾ [الجاثية]

إن القرآن لا يشجع النظرة المستعلية التى تحبس إدراك الإنسان داخل جدران ذاته ، وهو يفتح أمام النظر الإنسانى نافذة رحبة لرؤية غيره بقدر ما يرى نفسه ، والله يقول : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم .. (٣٨) ﴾ [الانعام] ، فكل ما خلق الله من الدواب .. كبر أو صغر ، هو من الأمم التى خلقها الله ، وألزمها بسنن حياتها ومصيرها . بل وعلّمها ما هى بحاجة إليه فى بقائها واستمرارها ، وعلاقاتها بالأمم الأخرى من الدواب ، وجاءت فى ذلك إشارة القرآن : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ

لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) ﴾ [النور] ، وهى إشارة تثبت لعوالم الطير والحشر ، والحيوان .. وعلى وجه الإجمال : كل من له حياة .. تثبت لها العلم والصلاة والتسبيح ، وهو أمر أكّدته الآية الثالثة : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] .

ومن المعلوم أن أمم الحيوان والطير قد سبقت فى وجودها وجود الإنسان على الأرض ، حسبك من ذلك إشارة القرآن إلى الغراب الذى علّم ابن آدم القاتل كيف يوارى سوأة أخيه ، ولكن وجود هذه الكائنات لم يشغل بال الإنسان ، لأنه لا يمثل فى نظره مشكلة ..

فأما وجود الخليقة البشرية فهو المشكلة الكبرى التى تواردت عليها الرؤى ، وتواترت الاجتهادات .. بدءاً من الرؤية الإسرائيلية ، وقد كانت ذات حظ عظيم من حيث انتشارها ، وتفردها على الساحة الفكرية ، حتى وجدنا أكثر المفسرين للقرآن يرددون ما ذكرته الإسرائيليات ترديداً حرفياً .. دون أدنى محاولة تعرض مضمونها على العقل ، وتغربل ما حفلت به من خرافات وأساطير .

وإلى القارئ جوهر القصة كما تلقيناها عن القدماء ، وكما رواها صاحب قصص الأنبياء المسمى بالعرائس (ص ١٦ - ١٧ - ط . شقرون) :

(قال المفسرون بألفاظ مختلفة ، ومعان متفقة : إن الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه الصلاة والسلام أوحى الله إلى الأرض : إنى خالق منك خلقاً ، منهم من يطيعنى ، ومنهم من يعصينى ، فمن أطاعنى منهم أدخلته

الجنة ، ومن عصانى أدخلته النار ، ثم بعث إليها جبريل عليه السلام ليأتيه بقبضة من ترابها . فلما أتاها جبريل ليقبض منها القبضة قالت له الأرض : إنى أعوذ بعزة الله الذى أرسلك أن لا تأخذ منى شيئاً يكون فيه غداً للنار نصيب ، فرجع جبريل عليه السلام إلى ربه ولم يأخذ منها شيئاً ؛ قال : يارب ، استعاذت بك فكرهت أن أقدم عليها .

فأمر الله عز وجل ميكائيل عليه السلام فأتى الأرض فاستعاذت بالله أن يأخذ منها شيئاً ، فرجع إلى ربه ، ولم يأخذ منها شيئاً .

فبعث الله تعالى ملك الموت فأتى الأرض ، فاستعاذت بالله أن يأخذ منها شيئاً ، فقال ملك الموت : وإنى أعوذ بالله أن أعصى له أمراً ، فقبض قبضة من زواياها الأربعة .. من أديمها الأعلى ، ومن سبختها ، وطينها ، وأحمرها وأسودها وأبيضها ، وسهلها وحزنها ، فكذلك كان فى ذرية آدم الطيب والخبيث ، والصالح والطالح ، والجميل والقبيح ، ولذلك اختلفت صورهم ، وألوانهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ (٢٢) ﴾ [الروم] ، ثم صعد بها ملك الموت إلى الله تعالى فأمره أن يجعلها طيناً ويخمرها ، فعجنها بالماء المر والعذب ، والملح ، حتى جعلها طيناً ، وخمّرها ، فلذلك اختلفت أخلاقهم .. ثم تركها أربعين سنة حتى صارت طيناً لازباً ليناً ، ثم تركها أربعين سنة حتى صارت صلصالاً كالفخار ، وهو الطين اليابس ، الذى إذا ضربته بيدك صلصل .. ثم جعله جسداً ، وألقاه على طريق الملائكة التى تهبط إلى السماء ، وتصعد منه أربعين سنة ، فذلك قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) ﴾ [الإنسان] .

قال ابن عباس : (الإنسان هو آدم ، والحين أربعون سنة ، كان آدم

جسداً ملقى على باب الجنة ، وفى صحيح الترمذى بالإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تفسير أول البقرة : أن الله خلق آدم بيده من قبضة قبضها من جميع الأرض .. ثم ألقاه على باب الجنة فكلما مرّ عليه ملأ من الملائكة عجبوا من حسن صورته ، وطول قامته ، ولم يكونوا قبل ذلك رأوا شيئاً يشبهه من الصور ، فمر إبليس فرآه فقال : لأمر ما خُلقتَ ، ثم ضربه بيده فإذا هو أجوف ، فدخل فيه وخرج من دبره ، وقال لأصحابه الذين معه من الملائكة : هذا خلق أجوف .. لا يثبت ولا يتماسك .. إلخ ..) .

على هذا مضت كل كتب التفسير تقريباً ، وكأنها تنقل من مصدر واحد ، مع انطواء الرواية على كثير من صور السذاجة .. مثل أن يقال : إن خلق آدم تم فى السماء ، وإن ملك الموت هو الذى استطاع أن يأخذ التراب من الأرض ، وأن يعجنه ويخمّره ، فلما خلقه الله أو صوّره ألقاه على باب الجنة .. ويستمر الكلام فى هيئة (سيناريو) .. يصف لنا ما جرى فى ذلكم الأزل الآدمى ، فيجعل التراب خليطاً من ألوان الأرض ، ليكون أبناء التراب على ألوانها المختلفة ، وخليطاً من أنواع التراب إشارة إلى تنوع الأخلاق ... وهكذا ...

كل ذلك مضى فى الغيب ، فكيف اطّلع عليه هؤلاء القصّاص من بنى إسرائيل ؟!!

وكيف سلّم العقل الإنسانى لحكاياتهم بهذه البساطة ؟ حتى اختصرت المسافة بين الله فى ملكوته الأعلى - وبين خلقه من الملائكة ، والشيطان ، إلى أن جاء دور آدم ؟

إن كل ذلك صار يمثل أمام العقل الحديث مشكلة خطيرة ، نتيجة التصادم بين معطيات القصة القديمة ، ومعطيات العصر الحديث ، وهو ما ظل يخامر عقلي طيلة ربع قرن من الزمان ، أو يزيد ، في محاولة لفهم النصوص التي جاءت في القرآن الكريم ، وهي قطعية .. تروى وقائع قصة الخلق ، وأيضاً للتوفيق بين التصوير القرآني ، والاتجاه العلمي في تصوير الحياة البشرية على هذه الأرض ، ولاحرج علينا في هذا مادمنا نرعى قداسة النصوص المنزّلة ، ومادمنا لا نخالف معلوماً من الدين بالضرورة ، وما دمنا نقدم رؤية عقلية تحترم المنطق ، وتستنطق اللغة من جديد ، وتدعم إيمان المؤمنين بما ينطوي عليه كتاب الله من أسرار، قد تكون خفيت عن بصائر ذوي التمييز ، ثم أذن الله سبحانه لبعض السر أن ينكشف ، وللرؤية أن تنجلي ، وهو ما نؤمّل أن نكون قد حققناه في هذا الكتاب .

ليست هذه هي المحاولة الوحيدة التي تناولت قصة الخلق ، فقد شغلت القصة عقول الفلاسفة والعلماء في عصور مختلفة ، وبيئات مختلفة كذلك، ويكفي أن نشير هنا إلى رؤية ابن طفيل قديماً في قصته عن (حيّ بن يقظان) كما نُذكّر بنظرية (تشارلز داروين) حديثاً عن نشأة الأنواع .

وأول ما اعترض ابن طفيل من المشكلات : (مشكلة خلق الإنسان ، أو كيف ظهر أول إنسان على وجه الأرض) .. يقول الأستاذ أحمد أمين في (حي بن يقظان – ص ٢٣ – ط . دار المعارف) عن ابن طفيل : إنه لم يكن يعرف بالضرورة رأي داروين الذي يرى أن أنواع المخلوقات متصل بعضها ببعض ، وأن ليس الإنسان إلا حلقة من هذه السلسلة .. سبقته حلقات أخرى ، إلى أن انتهت بالإنسان .

أما عند ابن طفيل فرأيان .. كل منهما يمكن أن يكون .. الأول : أنه نشأ

في جزيرة من جزر الهند ، تحت خط الاستواء ، تولّد فيها الإنسان من غير أم ولا أب ، لأن تلك الجزيرة أعدل بقاع الأرض هواءً وأتمها ، لشروق النور الأعلى عليها استعداداً ، فتأثرت هذه الجزيرة بأشعة الشمس ، وتخمرت الطينة الصالحة على مر السنين والأعوام ، وامتزجت القوى ، وتعددت وتكافأت ، وهذا ماذهب إليه بعض الفلاسفة من جواز التولد الذاتي الطبيعي ، ويرى ابن طفيل رأياً آخر : أن حي بن يقظان لم يتولد من غير أب ولا أم ، وإنما ولد من أب وأم ، وكانت أمه هي أخت الملك ، خافت من الملك فقذفته في اليم ، وجرفه المد إلى جزيرة أخرى ، حيث التقطته ظبية كانت فقدت ابنها ، فحنّت عليه ، وألقمته حلمتها ، وأرضعته لبناً سائغاً حتى ترعرع ، فهذان الرأيان يمثلان رأي الفلاسفة القدماء ، فبعضهم يرى إمكان التولد الذاتي إذا اعتدلت الطبيعة ، وتم الاستعداد من تخمر ونحوه ، وبعضهم يرى أن الإنسان لا يمكن أن يتولد إلا من إنسان) .

ويستطرد الأستاذ أحمد أمين استكمال رحلة (حي بن يقظان) فيقول : (إنه حنا على الظبية ، لأنها أرضعته لبنها ، وعطف عليها كما يعطف على أمه ، وما زال مع الظباء على هذه الحال ، يحكي نغمتها بصوته ، ويحكي ما يسمع من أصوات الطير ، وأنواع سائر الحيوان .. يحاكيها في الاستئلاف ، والاستدعاء ، والاستدفاع .

ولما قلدها في هذه الأصوات المختلفة باختلاف هذه الأنواع ألفته وألفها ..) .

وبذلك تعلم الإنسان من تقليد الحيوانات والطيور .. إلخ .

ومن الواضح أن ابن طفيل في رأيه الأول استخرج الإنسان من الطين المتخمّر ، وهو ما ذكره القرآن في خلق البشر : ﴿ من صلصال من حمأ مسنون (٢٦) ﴾ [الحجر] ، واستولده في تصوره الثاني من أب وأم على ماسترى في وجود الإنسان ، وهو ما لا يمكن أن يتصور في وجود الخلق الأول ، وافتراض أن أصل اللغة هو تقليد الإنسان لما حوله من أصوات طبيعية أو حيوانية أو طيرية .. وهو أمر ليس بعيداً عما يقول به الآن كثيرون من علماء اللغة ، ولا جديد لابن طفيل إلا في صوغ قصة الظبية ، وتطور علاقتها بالطفل (حَيّ) !! وهو مانجده لدى الغربيين في قصتهم عن (روبنسون كروزو) الذي ألقت به الأمواج إلى جزيرة مهجورة ، وهناك نشأ وتعامل مع الكائنات تبعاً لحاجاته وضروراته ، وليس روبنسون هذا سوى حي بن يقظان .

* * *

نسوق ما نقلناه عن الأستاذ أحمد أمين على أنه مجرد خيال يعبر عن حيرة الإنسان تجاه مشكلة الخلق ، لا على أنه اعتقاد لدى المرحوم الأستاذ أحمد أمين أو غيره ، والكتاب الذي بين يدي القارئ يؤرخ بمثل هذه النقول لتلك الحيرة الفكرية التي لم تخرج عن معطيات الإسرائيليات .

لقد كان جُلّ اعتمادنا في عرض قصة الخليقة على استنطاق آيات القرآن ، باعتبارها المصدر الأول والأوثق الذي ينبغي اعتماده في هذا المجال ، واستعنا بقليل من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما ساعدنا على جلاء المعنى القرآني ، وكان التزامنا دائماً بإقرار جملة من المبادئ الأساسية التي تقوم عليها القصة ، وهي :

الأرضية : فحياة آدم ، وموته ، وما وقع بينهما .. كل ذلك من وقائع الأرض وأحداثها .. تسليماً بحقيقة قررها القرآن في هذا الصدد في آيات كثيرة ، مثل قوله تعالى : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتا (١٧) ﴾ [نوح] ، وقوله : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى (٥٥) ﴾ [طه]

الترابية : فقد خلق الله الخلق من التراب الأرضي، وعناصره المعروف .. لا فرق في ذلك بين مؤمن وكافر ، ورجل وامرأة ، وهو ما قررته آيات كثيرة من مثل قوله : ﴿ فإنا خلقناكم من تراب (٥) ﴾ [الحج] ، وقوله : ﴿ أكفرت بالذي خلقك من تراب (٣٧) ﴾ [الكهف] ، وقوله : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون (٥٩) ﴾(١) [آل عمران] .

البشرية : وهي حقيقة بدأ بها وجود الإنسان ، كما تقرر في خطاب الله سبحانه للملائكة .. قال : ﴿ إني خالق بشرا من طين (٧١) ﴾ [ص] . وقد كان البشر في نظرنا نقطة البدء في وجود الإنسان الذي خلق من سلالة من طين .

الربانية : بما ميّز الله به الإنسان من النفخ فيه من روحه .. ﴿ ونفخت فيه من روحي (٢٩) ﴾ [الحجر] ، وبما طلب منه أن يحقق الربانية بإخلاص العبودية لوجهه سبحانه : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (٥٦) ﴾ [الذاريات] ، و ﴿ ولكن كونوا ربانيين .. (٧٩) ﴾ [آل عمران] . ولهذه الربانية أبعاد في حياة الإنسان لا نهاية لها .

وهذا هو ما يلخص حقيقة الإنسان وتعريفه بالاعتبار الوجودي

---

(١) سيأتي بيان لمضمون هذه الآية عند الحديث عن (أم أبو الإنسان)

والعلوي، فهو : (مخلوق أرضي ترابي بشري رباني) ، أما كونه (حيواناً ناطقاً)[١] فذلك هو التعريف الذي وضعه المناطقة باعتباره ضمن حركة الحياة متميزاً عن غيره من المتحركات الأرضية .

فإذا كان الذين فكروا في هذه القصة متفقين على هذه المبادئ الأساسية ؛ فإن اختلافهم لن يعدو أحياناً بعض التفاصيل التي لا يضر مثلها في تصور الإطار العام للقصة ، وإن كانت هناك تفاصيل أخرى لم يتطرق إلى مناقشتها السابقون .. تفرّد هذا العمل بمناقشتها ، واستخراج نتائج حاسمة منها .. أرجو أن يرضاها القارئ الذي يتتبع خيوطها .

* * *

وهنا قصة لابد من تسجيلها ، فقد تفضل الصديق الكريم الأستاذ الدكتور محمد هيثم الخياط ـ عضو مجمع اللغة العربية في الوطن العربي ـ بإهدائي نسخة مصوّرة من كتاب بعنوان (آدم عليه الصلاة والسلام) من تأليف الأستاذ بشير التركي .. أحد علماء تونس ، وكان الدكتور هيثم قد حضر الدرس الحسنيّ الذي ألقيته بين يدي جلالة الملك الحسن الثاني في رمضان ١٤١٧ هـ عن (رؤية في قصة الخليقة) ، وتذكر أنه رأى قبل ذلك كتاباً في الموضوع في تونس لأحد المفكرين المجتهدين ، فطلبه فلم يجده في المكتبات ، ولكنه عثر على نسخة منه عند أحد أصدقائه ، فصوّر النسخة ، وتفضل بإرسالها إليّ ـ جزاه الله كل خير ـ فقد شعرت عند تسلمي رسالة الصديق أن العلم رحم بين أهله ، وهو ـ أكرمه الله ـ قد

(١) لم يعجب هذا التعريف للإنسان بأنه حيوان ناطق بعض (الحيوانات الناطقة) ، ورأى أن ذلك خطأ وقع فيه الأئمة السابقون !

وصل بذلك تلك الرحم ، وأهدى إليّ قدراً من المعرفة كنت بحاجة إلى مطالعته .

غير أنيّ لم أجد مناسبة لإقحام آراء الأستاذ التركي في معالجتي للجانب العلمي من المشكلة ، فقد كنت انتهيت فعلاً من رقنها على الكمبيوتر ، ورأيت أن أقدم في هذه المقدمة خلاصة لما جاء عنده في هذا الصدد .. وفاءً بالواجب العلمي ، وعرفاناً بفضل الدكتور هيثم الخياط ، وإلى القارئ موجزاً لما جاء في ذلك الكتاب :

لقد ربط المؤلف معالجته لقصة آدم برأي له في بلدة (المهدية) ، وهي مدينة على الشاطئ الشرقي التونسي ، وهي مركز سهل أرضي شاسع جداً ، فعمق البحر في شرقها لا يبلغ مائة متر ، على بعد مائة وخمسين كيلو متراً ، وفي غربها لا يبلغ ارتفاع الأرض مائتي متر على مسافة مائة كيلومتر ، وقد ذكر المؤلف وصفاً تفصيلياً للمهدية يرشحها لتكون منشأ الحياة البشرية منذ ملايين السنين (ص ١٣) ، ثم ذكر في نفس الصفحة أنه (بعد أن انقرض البشر خلق الله آدم في الجنة ، ثم أنزله على الأرض يحمل السبع المثاني ، وهو الرصيد الوراثي المادي ، وهو المقصود من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) ﴾ [الحجر] .

والذي نلاحظه هنا أنه فصل بين آدم والبشر ، فوجود آدم كان بعد انقراض البشر ، ولا ملاحظة لنا على ارتباط آدم بالسبع المثاني ، فللمؤلف رأيه الذي يؤمن به .

وذكر في ص ٦٤ : أهم الموجات البشرية ، وهي أربع :

الأولى : من أربعة مليارات إلى مليار من السنين ، وهى فترة عاش خلالها بشر يسمى (بشر الجنوب) (الأسترالوبتيك) ، ويمتاز بأنه أول من صنع الآلات الحجرية ، حين استطاع أن يحرك إبهامه فى مواجهة الأصابع الأربعة ، خلافاً لغيره من الحيوانات ، فاستطاع القبض على الأشياء .

والثانية : من مليار إلى مائة وخمسين ألف سنة ، وعاش خلالها جيل البتكانيروب ، أو البشر القرد ، وكان منتصب القامة ، وهو البشر الواقف، وهو الذى اهتدى إلى النار .

والثالثة : من مائة وخمسين إلى أربعين ألف سنة ، وقد عاش خلالها إنسان النياندرتال ، وهو بشر الشعور ، وفى نهاية عهده كان (آدم) الذى علّمه الله الأسماء ، فهو يتصور الأشياء ، ويرمز لها بالكلام ، وتلك هى البداية الثقافية ، التى غرز الله مكوناتها فى فطرته ، وجعلها فى خلاياه الوراثية .

والرابعة : من أربعين ألف سنة حتى الآن ، وقد عاش فيها الإنسان (الهوموسابيتز) ، أو الإنسان العارف ، وهو الذى اهتدى إلى الكتابة .

ويسوق المؤلف حديثه بما يوحى بالتغاير بين الموجات الأربع ، وهو ـ كما سوف يلاحظ القارئ ـ مخالف لما أكدناه خلال بحثنا من أن المخلوق الذى أراده الله كان واحداً .. منذ قال الله سبحانه للملائكة : ﴿ إنى خالق بشراً من طين ﴾ إلى يوم الناس هذا ، وأن هذا البشر قد مرَّ فى مراحل من (التسوية ، ونفخ الروح الإلهى) .. فى مراحل متدرجة من حيث النضج ، وهو ما اختلفت به هويات الأجيال ، وكل ذلك فى إطار

المرحلة البشرية إلى أن كان (آدم) أول الإنسان الأول ، الذى اصطفاه الله نبياً ، فكان أبا الإنسان ـ لا أبا البشر ـ كما سيأتى .

أما تقسيمات هذه المراحل أو الموجات فهو مما تختلف فيه آراء العلماء ، ومذاهبهم ، ولكل وجهة ...

هذا هو ملخص ما كتبه الأستاذ بشير التركى خاصاً بقصة آدم ، وبقية الكتاب بحث عن مناسبة بلدة (المهدية) لتكون منشأ للخليقة منذ كانت .

* * *

وبعد ؛ فإن الموضوع خطير .. مثير ، وهو يحتاج إلى أن يقرأ بمزيد من التأمل والهدوء ، دون خضوع للأفكار المتوارثة ، والحكايات القديمة ، فأخطر شىء هو أن يقرأ المرء نصاً معينا ، ثم يهب معترضاً فى تلقائية بعيدة عن التفكير المتعمق ، فالغاية دائما هى الوصول إلى ماهو حق ، وعقل .. إن شاء الله .

وإذا كانت كتابة هذا البحث قد استغرقت خمسة وعشرين عاماً ، أو تزيد ، فإن بضع ساعات تنفق فى قراءته لا تكفى للتحاور معه ، ومناقشته ، للخروج من المأزق العقلى والثقافى الذى جرّتنا إليه الإسرائيليات .

إن هذا البحث قائم على ركيزة الآيات المنزّلة ..

وهو لم يخرج قيد أنملة عن المعنى القرآنى ..

وهو لا يتناقض فى نتائجه مع أى حديث صحيح فى السنة المحمدية .. أكان ذلك نصاً أم تأويلاً .

والهدف هو انتزاع العقل المسلم من براثن النقول الإسرائيلية المحشوة بالخرافات المنافية لكل ما هو عقل ، وعلم ، ونور .

فـ ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها (١٠٨) ﴾

[يونس]

و ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين (١٥) يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم (١٦) ﴾ [المائدة] صدق الله العظيم .

د . عبد الصبور شاهين

٤ رمضان ١٤١٨ هـ

٢ من يناير ١٩٩٨ م

مقدمة الطبعة الثانية

حين صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب (أبى آدم) أحدثت من الدوى ما يحدثه سقوط صخرة ضخمة فى بركة آسنة ، وانبعث من قلب البركة - أو المجتمع - أناس يتصدون للكتاب ، ولمؤلفه ، ظانين أن بوسعهم أن يخفتوا صوته ، ويخفوا أثره ، بالتشويه والتجريح ، وعلم الله أنهم لم يكونوا يملكون فكرا قادرا على استيعاب مضمون الكتاب ، بل لقد يصدق فى وصفهم ما ذكره المرحوم الكاتب الإسلامى مصطفى صادق الرافعى فى وصف بعض خصومه ، بأنه « يرى السماء الصافية فيظن أنها قبة من الزجاج ، وينظر إلى النجمة البادية فيرى أنها بيضة من بيض الدجاج » ، هكذا سمعنا خلال تلك الفترة جعجعة ، ولم نر طحنا ، وقد قذف وقع الصخرة فى البركة بعضهم إلى ساحات القضاء فى أربع زخات متواليات ، تولى كبرها رجل قانون ، ورجل تدين : (قضيتان فى المحكمة الابتدائية ، وأخريان أمام الاستئناف العادى والعالى ، فلم يلق الرجلان فى قضاياهما سوى أحكام الرفض ، وكان سندنا المهم فى تلك المواجهة الشرسة - ذات الأهداف الخفية - تقرير مستنير أصدره مجمع البحوث الإسلامية (وهو منشور أيضا فى ملحق الكتاب) ، يقرر فيه المجمع أن الكتاب لا يحتوى على ما يخالف القرآن الكريم أو السنة النبوية ، ولا ينكر معلوما من الدين بالضرورة ، أو ثابتا من ثوابت العقيدة ، وإنما هو اجتهاد توفرت شروطه فى مؤلف الكتاب ، والمجمع قد يختلف معه فى بعض النتائج التى توصل إليها - « أو كما قال » .

لقد حفظت الأحكام القضائية الصادرة بشأن الكتاب ـ للعلم كرامته ، وللاجتهاد حرمته ، وللإسلام قدسيته ، وعادت الكائنات التى انبعثت من قلب البركة الآسنة إلى قاعها فى انتظار صخرة أخرى .

أما الكتاب فقد كان صخرة أردت بها أن أدق رأس الأفعى الإسرائيلية اللابدة فى الثقافة الإسلامية القديمة ، ممثلة فيما سمى بالإسرائيليات ، وهى لا تعدو أن تكون أساطير خرافية تسللت إلى الفكر الإسلامى ، وإلى عقل الإنسان المسلم ، فاعتمدها أئمة من أهل التفسير ، ومن خلال تلك التفاسير سكنت فى منطقة المسلمات من العقل المسلم ، وهى فى الواقع أفعى إسرائيلية اعتنقها كثير من الرجال ، ممن لم يعملوا عقولهم فى تحليل نصوص القرآن ، وممن لم يشعروا بالصدمة حين اتضحت من الأرقام المسافة الزمنية الهائلة بين معطيات الخرافة ، وتقديرات العلم لآماد ما قبل التاريخ .. وأبعاد الحياة البشرية .. لقد خنقت الأفعى أفهامهم حين طوقت أعناقهم .

وقد يلاحظ فى ضوء الأرقام اختلاف العلماء فى تقديرها ، وهو اختلاف يعنى أن الأزمنة السابقة التى بدأت خلالها أحداث الخلق ، سواء فى ذلك خلق الأرض ، أو خلق الحياة بأنواعها عليها ـ يستحيل تقديرها على وجه التحديد واليقين ، وإنما تستخدم الأرقام للتعبير عن المدى الهائل الذى يعجز الإنسان عن الإحاطة به ، أو إدراك مداه .. فدلالتها فى كل حال ظانية !!

إن هناك علماء مفتونين بالأرقام ، يطلقونها على سبيل التحديد ، فيقولون منها (مثلاً) إن الأرض خلقت منذ كذا .. لا منذ كذا ، ويبلغ الأمر ببعضهم أن وصف السابقين عليه بأنهم جهال ، ومزيفون وبأن تقديره

هو الأدق !! .. ويحار المرء فى مناقشة مثل هذا الموقف الذى لا يحتوى دليلاً واحداً على صدق مضمونه ، ولكنها فتنة الأرقام الجيولوجية ، والواقع أن للمسألة وجهين تستخدم بهما :

الوجه الأول : حين تستخدم الأرقام فى مجال الدلالة الجيولوجية أو الانثروبولوجية ، فاختلاف الأرقام هنا ذو دلالة على مفهوم محدد تقريبا بأنه (قبل مرحلة كذا أو بعد تلك المرحلة) . واختلاف تقديرات العلماء هنا ، مع كونها تقريبية ، ذو قيمة علمية تؤثر فى النتائج الواقعية .

والثانى : وهو ما نحن بصدده ـ لا يقصد منه تحديد زمن معين ، بل يراد به إفادة مطلق البعد فى الزمان الأزلى ، وحينئذ لا يهم أن يقال : حدث هذا (مثلاً) منذ مائة مليون سنة ، أو مائتى مليون ، أو مليار ، لأن المراد هو إفادة البعد الزمانى المطلق ، ولن يقصد به أن شيئاً ما خلق قبل آخر أو بعده . فعلم ذلك وغيره عند الله وحده .

والوجه الأول خاص بالمؤلفات المتخصصة فى البحث عن آماد الكون وأبعاده واختلاف تقديراتها وهو وارد بناء على اختلاف منطلقاتها البحثية .

أما الوجه الثانى فهو يفيد فائدة عامة فقط ، وليس يُطلب من الباحث تتبع اختلافات العلماء فى هذا الصدد أو استخدامها لاستخراج نتيجة تاريخية أو أدبية ، فشتان ما بين المجالين ، والخلط بينهما لا يعبر عن ذكاء ، بل عن غباء .

ولابد أن نلتفت أمامنا الآن ، فنحن فى مواجهة غارة إسرائيلية تحاول استخدام كل الوسائل لتخريب العقل المسلم المعاصر ، وهى لا تكلف عن

ترديد الأساطير ، فى محاولة لزعزعة يقيننا بانفسنا . ويكفى أن يقف رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق مناحم بيجين ـ أمام الأهرامات الشامخة ، ليردد بصوت عال مزاعمه الإسرائيلية . بأن أجداده من بنى إسرائيل هم الذين بنوا هذه الأثار الخالدة ، وهى عملية اغتصاب فاجرة ، يريد بها تجريد الأجيال المصرية من كل ميزة أو فضيلة ، هذا على الرغم من أن مناحم بيجين ، وكل من تجمعوا فى فلسطين تحت شعار الصهيونية ، لا يملكون دليلاً واحداً على ما يزعمونه إنجازاً لبنى إسرائيل فى مصر ، بل وأكثر من هذا لا يملكون دليلاً واحداً على اتصال نسبهم بإسرائيل ، أو بنى إسرائيل ، فهم مجرد لملمة تناثرت فى العالم قبل عشرات القرون ، وتجمعت فى شكل مجموعات من الشذاذ ، لتحقيق خطة استعمارية ، هى ضرب الإسلام بواسطة هذه الجيوش المرتزقة .

والعجيب أنهم يسطون على التراث الإسلامى ، ليؤلفوا ملحمة إسرائيلية تتكامل مع العهد القديم ، ليبنوا لأنفسهم وجوداً ثقافياً مؤثراً فى العقل المسلم وتاريخه ، وهذا هو شأن الغارة الإسرائيلية المستوطنة الآن فى فلسطين ، تحاول بما تثير من غبار الافتراءات والأكاذيب والإسرائيليات ، أن تلهينا عن مرارة واقعنا ، الذى ينبغى أن نحتشد لمقاومته بكل ما نملك من قوة وعزم وإصرار ، وأن نرفض كل دعاوى السلام الزائفة ، التى ليست سوى وسائل يضحكون بها علينا ، وقد تبين لنا أن السلام الذى تعنيه إسرائيل ، ومَن وراءها من أمريكان وأوروبيين ، هو عبارة عن هدنة بين حربين ، أولاهما سبقت ، والثانية آتية لا ريب فيها.

بل إننا نرى لزاما علينا أن نجاهد تلك الغارة الإسرائيلية على قلب عالمنا

العربى ـ فى فلسطين ، نجاهدها ماديا وأدبيا ، نجاهدها استيطانا ، واحتلالاً وتأثيرا فكريا وإعلاميا ، وسياسيا واقتصاديا .. لا بد أن نقضى على هؤلاء الغزاة قبل أن يقضوا علينا .. فقد جاءوا إلى بلادنا قاتلين أو مقتولين وسنكون نحن قاتليهم ، وسيكونون هم المقتولين ـ بمشيئة الله ، حتى نسوقهم إلى حصير جهنم .

لقد ابتلى العقل المسلم المعاصر من قبل مدرستين لهما وجود على الساحة ، ولهما ضجيج مزعج ، وقد آن أوان إخماد هذا الضجيج :

أما أولاهما فهى المدرسة الخرافية التى تتبنى الحكايات والإسرائيليات ، وأما الثانية فهى المدرسة الحرفية ، والتى تتشبث بالمأثور ، حتى ولو كان خرافيا ، وهى المدرسة التى ترفع السيف فى وجه أى اجتهاد ، بدعوى الخروج على قواعد اللعبة السلفية ، والسلفية براء من كل أشكال الأساطير والخرافات .

ولا مناص ـ إذا أردنا للإسلام أن يتبوأ مكانة فى عالم الغد ـ أن يتم القضاء على هاتين المدرستين وآثارهما ، فهناك تحالف بين الحرفيين والخرافيين ، هو الذى يعوق حركة الاجتهاد الإسلامى المعاصر ، بإشاعة الخوف فى نفوس أصحاب الرأى والاجتهاد ، وكثيرا ما اختنقت آراء قيمة بإشاعة هذا الرعب مع أن الإسلام يشجع على الاجتهاد ، ويعد كل مجتهد بالأجر ـ ما دام لا يخالف ثابتا من ثوابت العقيدة ، وما دام لا ينكر معلوما من الدين بالضرورة ، فلنجتهد ، ولتذهب الخرافية والحرفية إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم .

وهذا هو الهدف الجوهرى من إصدار هذا الكتاب ..

ولقد حقق بصدوره نتيجة قيمة حين نشط بعض الكاتبين للرد عليه ، وكتبوا مقالات ، وهو أثر حميد من آثار الكتاب ، فلو لم يصدر لما كتبوا ـ فليحمدوا الله على نعمة ظهوره .

أما مؤلف هذا الكتاب فإنه يحمد ربه على كل ضراء وعلى كل سراء ، وقد مضت فى حياتى أزمات كثيرة ، قد تتفوق في قساوتها على ما أثاره (أبى آدم) ، ومع ذلك فقد مرت كل الأزمات ـ بحمد الله ـ وكأنها نسمات القدر .. وبسمات الرضوان .

د. عبد الصبور شاهين

الباب الأول

القصة بين العقل والنقل

الفصل الأول

القصة والإسرائيليات

قصة الخلق – كما أوردها القرآن الكريم – مليئة بالكثير من الأسرار الخفية ، والمعانى الظاهرة ، وقد تناولها المفسرون والمنصفون من زاوية أو أخرى ، وتشابهت محاولات القدماء ، حين أخذ بعضهم عن بعض ، وحين جاء العصر الحديث بمعطياته الكثيرة فى مجالات علم الأرض (الجيولوجيا) والإنسان (الأنثروبولوجيا) وعلوم الحياة ، والأحياء (البيولوجيا) وغيرها – تغيرت مفاهيم كثيرة ، وصار لزاماً على من يتصدى لكتابة شىء عن هذه القصة أن يأخذ فى اعتباره ما كشف عنه العلم الحديث من حقائق نسبية ، وما قال به من نظريات ، حتى لا يبدو متخلفاً عن موكب المعرفة المعاصرة . وذلك على الرغم من أن الذين حاولوا الكتابة فى هذه القصة حديثاً تعاملوا معها من منطلق المسلمات القديمة ، أو بمنطق اللامساس والتوفيق الحذر .

إن هذه القصة كما وردت فى القرآن الكريم تحتمل الكثير من التأويلات ، وهى حافلة بالإيماءات والإشارات ذات الدلالة التاريخية والزمنية ، ونحن هنا نستخدم المصطلح (التاريخ) بالمفهوم العام ، الذى يشمل كل ما مضى من الزمان ، محدداً كان أو غير محدد ، أى : التاريخ وما قبل التاريخ ، منذ كان الزمان بأمر الله التكوينى (كن) فكان ... ولا معقب ..

إن نظرة القدماء إلى القصة قد تأثرت بالتصور الإسرائيلي لها ، وهو الوارد في سفر التكوين ، حيث يختزل الزمان كله إلى أقل من ثلاثة آلاف سنة تستغرق عشرين جيلاً هم المسافة بين آدم وإبراهيم ، وقد انقسمت سلسلة النسب إلى مجموعتين :

الأولى : بين آدم ونوح (وهي عشرة أجيال) .

الثانية : بين نوح وإبراهيم (وهي عشرة أجيال أيضاً) .

مع ملاحظة أن سياق النص يوحي بأن الأجيال العشرة الأولى قد بادت بسبب الطوفان ، ثم بدأت الإنسانية جولتها الثانية من سلالة نوح ، الأب الثاني لها ، من خلال أولاده الثلاثة : سام وحام ويافث (ارجع إلى سفر التكوين – العهد القديم) ، ومع ملاحظة أخرى هي : أن العمر الذي عاشه آدم – مثلاً – يصل في تقدير العهد القديم إلى حدود الجيل التاسع تقريباً ، أي : قبل نوح بجيل واحد .

لسنا هنا بصدد مناقشة معلومات العهد القديم ونقدها ، فهي ذات طابع أسطوري غالباً ، ولا دليل على خطئها أو صوابها ، سواء في الأسماء أو في الأرقام ، وإن كانت إلى الإحالة وعدم التصديق أقرب .

ولكن الملاحظة أن أصحاب السير قد اعتبروها من قبيل المسلمات ، فكرروها دون أدنى مناقشة ، أو حتى توقف ، وهذا هو ابن هشام في سيرته يذكر نسب النبي صلى الله عليه وسلم ، فيصل به إلى آدم عبر سلسلة العهد القديم ، فإذا بالنبي من الجيل الخمسين بعد آدم ، أي : إن المدة من آدم إلى محمد – ثم إلى زماننا هذا – لا تزيد على سبعة آلاف عام ، هي كل ما مضى من عمر البشرية ، وهو تقدير لا يتفق مع

التقديرات القائمة على الرؤية العلمية ، التي تقرب ولا تحدد .

وحسبنا أن ننظر في تعليق محقق السيرة الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد على ماذكره ابن هشام من نسب الرسول صلى الله عليه وسلم قال : (روى عن عروة بين الزبير أنه قال : ما وجدنا أحداً يعرف ما بين عدنان وإسماعيل) ..

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : (إنما ننتسب إلى عدنان ، ومافوق ذلك لا ندري ما هو) ، وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال – لما بلغ عدنان : (كذب النسابون) مرتين أو ثلاثاً .

وقد كره مالك وجماعة من العلماء أن يرفع الرجل نسبه إلى آدم ، من قبل أن هذا كله من باب التخرص والظنون التي لا يمكن أن يوثق بها[1] .

ويلف النظر في هذا التعليق الرواية عن ابن عباس : (أن بين عدنان وإسماعيل ثلاثين أباً لا يعرفون) .. أي ثلاثين جيلاً ، تستغرق في المتوسط ثلاثة آلاف سنة على الأقل .

فإذا رجعنا إلى حساب التاريخ للمدة من إبراهيم حتى الآن وجدناها تقترب من أربعة آلاف سنة وهي مدة تختلف تماماً مع ظنون النسابين ، الأمر الذي يجعلنا لا نعوّل كثيرا على رواة الأنساب ، ولا على مصادرهم الكتابية .

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١

النظـرة العلميـــة

أما النظرة العلمية إلى هذه المسألة فـإنها تضعنا في قلب تحد[illegible] تحسب أبعاده بمئات الألوف .. بل بمئات الملايين من السنين ، وقد جاء في [illegible] مـوسوعـة الثـقافـة العلمـية (صـفـحة ٤١٧ـ٤١٨) أسـمـاء العصـ[illegible] الجـيولوجـية ، وآمـادها الزمنيـة ، وهي عـصور مـرت بكوكب الأر[illegible] وقُسمت إلى حقب ، بحسب معالمها السائدة – كما قررها العلماء

حقبة الحياة العتيقة :

حقبة ما قبل الكمبري	٧١,١٢٥,٠٠٠,٠٠٠	سنة
حقبة الكمبري	٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠	سنة
حقبة الأردوفيشي	٣٧٥,٠٠٠,٠٠٠	سنة
حقبة السيلوري	٣٢٥,٠٠٠,٠٠٠	سنة
حقبة الديفوني	٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠	سنة
حقبة الكربوني	٢٥٠,٠٠٠,٠٠٠	سنة
حقبة البرمي	٢٠٥,٠٠٠,٠٠٠	سنة

حقبة الحياة المتوسطة :

حقبة الطراياسي	١٧٠,٠٠٠,٠٠٠	سنة

حقبة الجورى ١٣٥,٠٠٠,٠٠٠ سنة

حقبة الطباشيرى ٩٥,٠٠٠,٠٠٠ سنة

حقبة الحياة الحديثة :

حقبة الباليوسينى ٨٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة

حقبة الأيوسين ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة

حقبة الأوليجوسين ٤٢,٠٠٠,٠٠٠ سنة

حقبة الميوسين ٢٥,٠٠٠,٠٠٠ سنة

حقبة البليوسين ٨,٠٠٠,٠٠٠ سنة

حقبة البلايستوسين ٥٠٠,٠٠٠ سنة

وكل هذه الحقب يعتبر وجود الإنسان فيها غامضا ، ويمكن أن نتصور وجوده فى شكل مخلوق فطرى (خام) كالحيوان يستخلص إدراكات شتى من الأحاسيس المختلطة التى لا تحصى[1] .

حقبة الحياة الأخيرة :

الدور الأخير ، دون تاريخ أو تقدير ، وهو دور انحسار الجليد ، وقد شهد نباتات متزرعة ، وهى حقبة الإنسان الهوموسابينز أو الإنسان المفكر .

ومن الواضح أننا طبقاً لهذه المعلومات أمام أزمان متطاولة تحسب كما نرى بعشرات المليارات من السنين ، فقد بدأت حقبة الحياة العتيقة بمرحلة ما قبل العصر الكمبرى ، أى : منذ واحد وسبعين ملياراً وخمسة وعشرين مليوناً من السنين ، فهو أطول العصور أو الحقب وأقدمها على الإطلاق فى تقدير العلماء .

(١) اللغة – فندريس / ١٢ .

وبدأت حقبة الحياة المتوسطة بالعصر الطراياسى ، منذ مائة وسبعين مليوناً من السنين[1] .

وبدأت حقبة الحياة الحديثة مع بداية العصر الباليوسينى منذ ثمانين مليوناً من السنين ، وتأتى مرحلة حاسمة ضمن هذه الحقبة ، هى حقبة الحياة فى العصر البلايستوسينى ، وتقدر بدايتها منذ خمسمائة ألف سنة ، طبقاً لمعلومات موسوعة الثقافة العلمية .

فإذا رجعنا إلى كتاب (صور من حياة ما قبل التاريخ) ، للمؤلفين : الأستاذ الدكتور زغلول النجار ، والأستاذ أحمد داود – وجدناه فى (صفحة ١٤٦) يقرر أن فترات الجليد فى عهد البلايستوسين دامت حوالى ستمائة ألف سنة ، فى فترات ثلاث : مائة ألف ، ثم ثلثمائة ألف ، ثم مائتى ألف ، فصلت بعضها عن بعض فترات أخرى تميزت بانحسار الزحف الجليدى ، وعندما كان الجليد ينحسر من فوق سطح الأرض كانت تكسى بغطاء خضرى مزدهر ، وهكذا .. وقد شهد ذلك العصر ظهور النباتات والغابات ، كما ظهرت الحيوانات اللافقارية فى البحار ، وانتشرت أنواع من القواقع الأرضية .

كما ظهرت بعض الحيوانات الفقارية من الثدييات ، ومنها حيوان الرنة ، والثعلب القطبى ، وانتشر بقر البحر فى الأنهار ، ومرحت الأسود والضباع فى الغابات ، وانتشرت الدببة فى الكهوف ، وبعض الحيوانات المنقرضة ، كذلك الفيل الضخم الذى يطلق عليه (الماموث) ، وحيوان الميجاثيريوم والجلبتودون والديناصورات ، وظهرت فى ذلك العصر الفيلة

(١) من العلماء المعاصرين من لا يوافق على هذه التقديرات جملة وتفصيلاً . ويصف القائلين بها بأنهم مزيفون وكذابون

والاحصنة والثيران بكثرة ، مع شيء من الاختـلاف عما ظهر في حـقبة الباليـوسين ، أي : منذ تسعـين مليون سنة ، والحقـبة التاليـة لها ، وهي (الميوسين) منذ خمسة وعشـرين مليون سنة ، وهي الحقبة التي شهدت ظهور بعض أنواع من الطيور ، كالبجع وبداية طائر البطريق ، وطيور الماء التي تشبـه (أبو قـردان) في العـصـر الحديـث وغيـرها ، وانتـشـرت الخـراتيت، والغـزلان والزراف ، وبعض الكلاب والدببـة ، والـنسـانيس والقردة ، وبعض الحيوانات المفترسة كالنمور ذوات الناب .. بل إن العلماء السوفيت عثروا على سمكة ضخمة متحجرة في باطن الأرض ، عند مدينة خاركوف ، حددوا عمرها بأنه حوالي ثلاثين مليون سنة ، وغرابة الكشف أيضاً أن قشر السمكة مازال محتفظاً ببريقه .. كشفوا عنها أثناء حفر نفق سكة حديد ، وتم نقلها إلى المتحف العلمي لجامعة خاركوف .

كل ذلك وغيره سـبق ظهور الإنسان ، وقد وجدت بقـاياه في الصخور القديمة ، وقيعان البحار ، والكثبان الرملية ، ويقول مؤلفا (صورمن حياة ما قبل التاريخ) – صفحة ١٤٨ :

(وقبل المليون سنة تقريباً ، وجدت بقايا لكائنات شبيهة بالإنسان مثل جنس (أوسترالويشكس) . والذي وجدت بقاياه في أفريقيا ، وانتشر في عصر البلايستوسين المتوسط عبر معظم قارات العالم القديم .

وبعد ذلك وجدت بقايا ما يعرف بإنسان بكين ، وإنسان جاوة ، وإنسان هيدلبرج ، وإنسان نيـاندارتال ، وإنسان روديسـيا ، وإنسان سـوانكومب. ويخـتار بعض العلمـاء من بين هؤلاء الاناسي إنسـان هيـدلبرج باعـتبـاره الحلقـة الوسطى بين الإنسـان الذي يتكلم والحـيوانات الـتي تصيح ، أمـا الإنسان النياندرتالي فيظهر أنه كان ذا مبادئ فكرية من اللغة الملفوظة)[1] .

(١) اللغة – فندريس – تصدير هنري برجسون .

بشر سابيان
من مائة وثلاثين ألف سنة



بشر نياندرتال
من مائة وعشرين ألف سنة

وكل هؤلاء الاناسي وجوه مختلفة لمخلوق واحد ، كان ينتقل من مرحلة إلى مرحلة في تسوية الخالق له ، فكلما مضت مرحلة من التسوية تغيرت بعض أوصافه . وأفرده الباحثون في الجيولوجيا والأنثروبولوجيا بتسمية . وقد وجدت تلك البقايا بصورة ناقصة ونادرة ، مما يجعل معلوماتنا عن هذه المخلوقات الشبيهة بالإنسان بعيدة كل البعد عن الكمال .

وأول كائن إنسي له المميزات التشريحية للإنسان المعاصر ، وله صفاته من الذكاء ، والقدرة على التعبير عن نفسه هو (إنسان كرومانيون) والذي وجدت بقاياه في جنوب فرنسا ، في كهوف ترك آثاره على جدرانها رسوماً لبعض الحيوانات التي اصطادها ، ويتضح منها أن هذا المخلوق تمتع بقدر من الذكاء يربطه بالإنسان الحالي .

وأقدم بقايا لإنسان كرومانيون ترجع إلى حوالي ثلاثين ، إلى خمسة وثلاثين ألف سنة مضت ، وهذه الفترة تعتبر من أقدم فترات التاريخ المسجل .

هذه النماذج التي عثر عليها من بقايا الإنسان على الأرض تمتد كما رأينا منذ ما قبل مليون سنة ، وهي تؤرخ لمسيرة هذا المخلوق حتى عهد قدره العلماء بخمسة وثلاثين ألف سنة .

وقد نشرت جريدة الوفد[1] في (٦/١٠/١٩٩٦) أن الإنسان الأول عاش أيضاً في جبل طارق في عدة كهوف عثر عليها هناك ، وأن ذلك كان منذ ما يقرب من ثلاثين ألف سنة .

---

(١) قد نعتبر بعض الصحف اليومية مرجعاً ننقل عنه بعض الأخبار حين لا يتوافر لدينا مؤلف نعتمده في توثيقها ، ومع ذلك فنحن نذكره في إطار أنه خبر ظني الدلالة

بشر بكين
من أربعمائة ألف سنة إلى خمسمائة ألف سنة



بشر كينيا
مليون وتسعمائة ألف سنة

ومع ذلك فقد نفاجأ بوجود أحافير تدل على أن ظهور الإنسان كان أقدم من هذا التقدير ، فما زالت الأرض محتوية على شواهد دالة على بدء الخلق وكيفيته ، ولن يبلغ الإنسان مبلغ الحقيقة إلا إذا داوم على البحث ، واستمر في السير تفتيشاً عن شواهدها وأدلتها ، وهو ما أمرت به الآيتان القرآنيتان :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ .. (٢٠) ﴾ [العنكبوت]

وقوله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) ﴾ [الذاريات]

وكل ما سجله العلم من مراحل الحياة على الأرض هو ولا شك من معطيات البحث والسير فيها ، فهي خطوات في الطريق الصحيحة ، تهدي الإنسان إلى أصله ومنشئه ، عبر تلك الآماد السحيقة .. لقد كانت تلك الآماد - ولاشك - مقدمات لخلق الإنسان .. ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ﴾ [التين] ، أي : إن خلق الإنسان كان إرادة سابقة أزلاً على وجود الأرض ذاتها ، قبل مليارات السنين ، ثم كانت الأرض ، وكان ما مر بها من عهود سحيقة يعجز العقل عن تصورها - هو التمهيد الإلهي الباهر لظهور السلالات البشرية ، الذي تضاربت الآراء في توقيته ، فليس من هذه العهود ما يعتبر حقيقة مطلقة .. بل هي جميعاً آراء نسبية ، تتفق في الحد الجامع بينها ، وتختلف في العهود والحقب ، ولا سبيل حتى الآن إلى معرفة متى كانت بالضبط بداياتها ونهاياتها .

والأثر دليل على نسبية المعلومات المدونة في المراجع العلمية حول الإنسان ، وعصر ظهوره على الأرض (قبل مليون سنة) - ما أعلنه مؤخراً أحد العلماء الأنثروبولوجيين ، من أن وجود الإنسان كان أسبق



بشر كرومانيون
من ثلاثين ألف سنة

مما سقناه نقلاً عن موسوعة الثقافة العلمية ، وعن كتاب (صور من حياة ما قبل التاريخ) وهو خبر لم ندهش له ، ونحن نؤمن بنسبية الصدق فى معطيات العلم الحديث ، وبخاصة فى هذا المجال .

لقد نشرت جريدة الأهرام فى عددها الصادر صباح الأربعاء (١٩٧٢/١١/٨) : (أن البروفسور ريتشارد ليكى أحد العلماء الانثروبولوجيا – علم الإنسان) .. أعلن فى كينيا أنه تم اكتشاف بقايا جمجمة يرجع تاريخها إلى مليونين ونصف مليون عام ، وتعد أقدم أثر من نوعه للإنسان الأول .

وقال العالم : (إن هذه الاكتشاف يمتد فى قدمه مليوناً ونصف مليون عام عن أقدم أثر أمكن العثور عليه حتى الآن ، وقد تم اكتشاف عظام الجمجمة ، مع عظام لساق بشرية ترجع إلى نفس الحقبة من التاريخ ، فى جبل حجرى ، بصحراء تقع شرق بحيرة رودلف فى كينيا) .

وقال العالم : (إن هذا الأثر يمكن أن يقلب النظريات القائمة بشأن تطور الإنسان عن أجداده فيما قبل التاريخ ، وكيف ؟ ومتى ؟) .

وقد قدم ريتشارد ليكى ، وهو مدير المتحف الوطنى فى كينيا – تقريراً عن اكتشافه إلى الجمعية الجغرافية الوطنية فى واشنطن ، وقال : (إن نظريات التطور الحالية – وعلى رأسها نظرية داروين – تفيد أن الإنسان تطور من مخلوق بدائى ، كانت له سمات بدنية شبيهة بسمات القرد ، وإن أقدم أثر للإنسان كمخلوق منتصب يسير على رجلين ، وله مخ كبير – يرجع إلى نحو مليون سنة) .

هذا فى حين أن الكشف الجديد يدل على أن المخلوق الإنسانى المنتصب ذا الساقين لم يتطور عن المخلوق البدائى الذى يشبه القرد ، بل كان يعاصره منذ [illegible]من مليونين ونصف مليون عام ، وإنه يمكن على هذا الاعتبار استبعاد المخلوق البدائى الأول على أساس أن الإنسان انحدر من سلالته .

وذكرت الجمعية الجغرافية فى تعليق لها على هذا الكلام : (أن نظرية ليكى تقوم على أساس أن المخلوق البدائى الأول و اسمه العلمى (أوسترالوبثيكوس) وكان أساساً من آكلة النباتات ، قد وصل إلى مرحلة تطويرية مسدودة، بينما استطاع الإنسان الذى استخدم اللحم فى غذائه ، وتمكن من صناعة الأدوات الحجرية – أن يبقى على قيد الحياة) .

وأكد ليكى فى تقريره : (أنه أمكن إعادة بناء جمجمة من شظايا العظام التى عثر عليها ، وأنه بالرغم من أن هذه الجمجمة لا تشبه جماجم الجنس البشرى المعروف حالياً ، إلا أنها تختلف كذلك عن جميع أشكال الجماجم التى عثر عليها للإنسان الأول ، وبذلك لا تتفق مع أى نظريات حالية عن تطور الإنسان) .

وواضح إذن أن الفرق الزمنى هائل بين هذا الرأى ، وما تقوله نظرية داروين . كما أن الفرق هائل أيضاً فى جوهر التصور للإنسان الأول بين النظريتين ، فهو عند داروين يمشى على أربع منذ مليون سنة ، ثم انتصبت قامته ، وعند ليكى يمشى منتصب القامة منذ مليونين ونصف المليون من السنين ، وأنه كذلك منذ كان .

فإذا رجعنا إلى ما أورده المؤلف سيد أحمد الكيلانى فى كتابه عن

(نظرية داروين بين التأييد والمعارضة – صفحة ٢١) حين قال : (وقد أذاع البروفيسور جوهانس هورزلر – العالم الذرى فى سمنتبال بسويسرا – بياناً فى مارس ١٩٥٦) نجد أنه عارض نظرية داروين بشدة ، وقال : (إنه لا يوجد دليل واحد من ألف على أن الإنسان من سلالة القرد ، وإن التجارب الواسعة التى أجراها دلت على أن الإنسان منذ عشرة ملايين سنة وهو يعيش منفرداً ، وبعيداً جداً) .

وأضاف إلى ذلك : (أن الهياكل التى درس عليها تؤكد نظريته ، وقد قدم البروفيسور المذكور للمتحف الطبيعى بمدينة بال قطعة من الفحم بداخلها قطعة من فك إنسان يرجع تاريخها إلى عشرة ملايين سنة ، وهذا هو التاريخ الذى أمكن الحصول فيه على هياكل آدمية) .

وبتاريخ ٣١ مارس ١٩٥٦ أعلن فى أمريكا أن الدكتور (رويتر) المشرف على الأبحاث بجامعة كولومبيا – قد أيد البروفيسور هورذلر فى وجهة نظره ، واعتبرت نظرية داروين بذلك رأياً لا يستند إلى أى دليل علمى ، وأن الكائنات إنما خلقت مستقلة الأنواع ، استقلالاً تاماً ، فمنها الإنسان الذى يمشى على رجليه ، ومنها الدواب التى تمشى على أربع ، ومنها الزواحف التى تمشى على بطونها .

وإذا كان سياق الداروينية يقرر أن القردة خلقت هكذا مستقلة عن الأنواع الأخرى قبلها ، فما الذى يجعلها أصلاً لنوع الإنسان فى فرضية داروين ، على حين أن الأقرب إلى المنطق هو أن القدرة التى خلقت نوع القردة التى تمشى على أربع – قد خلقت نوعاً آخر يمشى منتصباً على رجلين ، وهو الإنسان ، وهى القدرة التى أوجدت ملايين الأنواع من المخلوقات المتحركة ، لكل نوع عالمه وقدراته ، وبدايته ونهايته ، فالكل

صادر عن قدرة مطلقة واحدة ، تماماً كما حدث القرآن عن وحدة الأصل ، واختلاف الشكل – فى قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ .. (٤٥) ﴾ [النور]

نحن إذن أمام جملة من النظريات المشتجرة والمتعارضة ، التى تركز كلها على تاريخ وجود الإنسان ، وأصل هذا المخلوق . وهى كلها تؤكد نسبية المعلومات التى تضمنتها ، ولكل واحدة منها أدلتها التى تستند إليها فى تقرير جوانب التصور الزمنية والخلقية ، ولا ريب أن فى كل منها شيئاً من الحقيقة ، وأشياء من الخيال تصب فى بحر الضلال ، حفاظاً على نسبية المعلومات والنظريات فى دلالتها على جوهر الحقيقة الذى يتراوح حتى الآن ما بين مليون سنة ، وعشرة ملايين من السنين .

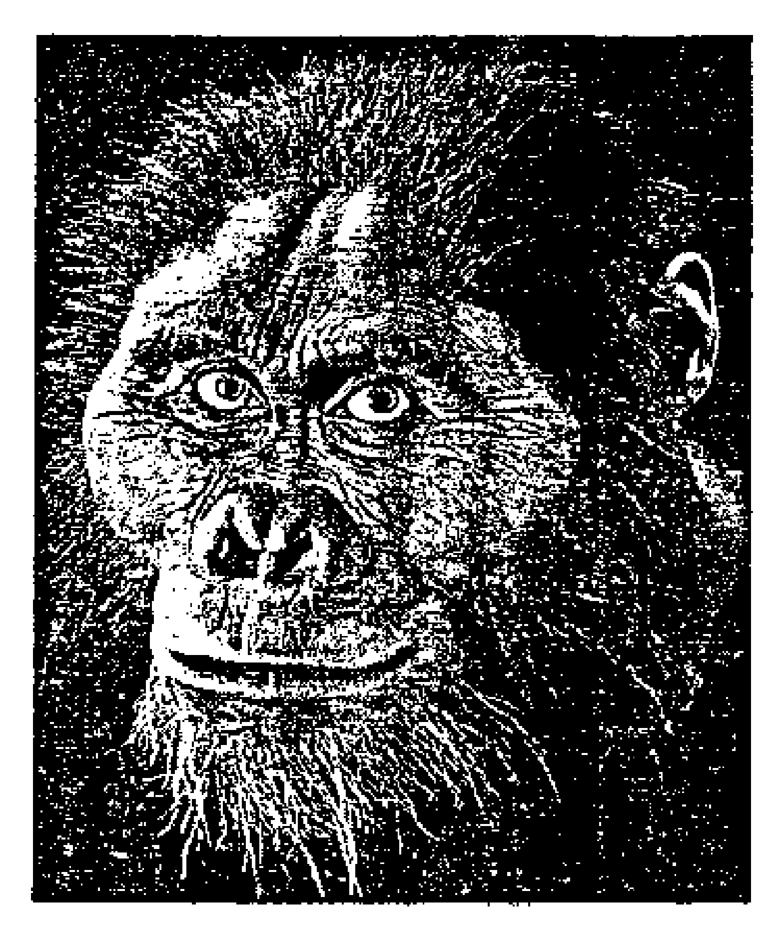
ومن أواخر ما نشرته جريدة الأهرام فى هذا الشأن ، خلال شهر يونيو ١٩٩٦ ، ما تضمنه بحث علمى آخر فى بريطانيا – قد يكون دليلاً آخر لهدم نظرية داروين القائلة بأن الإنسان أصله قرد ، أو منحدر من إحدى سلالات القردة العليا ، تحدى العلماء البريطانيون الرأى العلمى السائد بأن الإنسان الأول كان يمشى معتمداً على يديه ورجليه ، مثل الشمبانزى .

وقال العلماء فى جامعة ليفربول البريطانية : (إن الرأى الأرجح هو أن الإنسان الأول كان يسير منتصب القامة ، تماماً مثل الإنسان اليوم ، وأوضحوا أنه لو كان الإنسان القديم يسير منحنيا – كما تصور ذلك بعض النظريات العلمية – فإنه لم يكن من الممكن أن يعتدل فى قامته ، ويسير كما هو الآن أبداً) .

وأشار العلماء إلى أنهم أخذوا أحجام الإنسان القديم ومقاساته من هيكل كائن شبيه بالإنسان ، وهو المعروف باسم (لوسى) ، والذى عثر عليه فى أثيوبيا ، ويرجع إلى ثلاثة ملايين عام مضت ، ثم استخدموا الكمبيوتر فى تطوير إنسان آلى صناعى (روبوت) لكى يكون نموذجاً لكيفية تحرك (لوسى) ، وأوضح العلماء أن التجارب أثبتت أن (لوسى) – وهى أنثى – لم تكن لتتطور وتمشى منتصبة القامة بعد ذلك ، وقال الدكتور روبن كرمبتون ، أحد المشاركين فى البحث : إن ذلك يعنى أن النظريات العلمية التى تظهر الإنسان القديم يمشى فى وضع مُنْحَنٍ فى حاجة إلى إعادة كتابة ، وأشار إلى أنه ما إن بدأ الإنسان يقف على قدمين، فإنه كانت هناك ضغوط قوية لكى يسير ويقف منتصباً .

وأوضح أن المشى بشكل منتصب يساعد الإنسان على التنفس بشكل جيد ، ومشيراً إلى أن قرود الشمبانزى عندما تمشى منحنية فإنها تسير لوقت قصير للغاية ، لأن هذا الوضع لا يساعدها على التنفس الصحيح .. بل يصيبها بالإجهاد ، وقال : إن هذه القرود بعد خمسين خطوة فقط من المشى فى انحناء تسارع بالجرى ، بعكس الإنسان القديم الذى يظهر علم الآثار أنه كان يمشى لأكثر من مائتى كيلومتر ، وهذه المسافة لا يمكن أن تتم وهو فى حالة انحناء .

وهذا الرأى يلتقى فى تقديره الزمنى تقريباً مع تقدير البروفيسور ليكى بناء على جمجمة كينيا ، غير أن مرتكز الاستدلال لم يكن البحث فى عمر الأحفورة ، بل قام على مناقشة القدرة على المشى منتصباً أو منحنياً لدى القردة والإنسان ، كيما يصل فى النهاية إلى رفض نظرية داروين ، بأسلوب التقنية المعاصرة .



لوسى ـ حطمت النظرية الداروينية

٣,٢ مليون سنة

وغنى عن البيان أن كل الجهود العلمية حتى الآن تنصب على معارضة داروين فيما ذهب إليه ، وأن ما قدمناه لم يكن سوى بعض العينات التى جهد فيها العلماء ليدحضوا مذهب النشوء والارتقاء .. حتى إننا نستطيع أن نقول : إن نظرية داروين قد صارت لكثرة ما تعرضت له من نقد - مجرد مقولة هشة .. لا تعنى شيئاً فى مجال البحث عن أصل الإنسان . وإن قدمت الكثير فى مجال (البيولوجيا) أو علم الأحياء .

وتبقى حقيقة واحدة ، نكررها دائماً ، هى نسبة التقديرات العلمية التى حاولت التأريخ لبداية وجود الإنسان على الأرض فى أى شكل من أشكال الوجود .

لقد سقطت إذن فكرة (التطور الخالق) ، ونقول : (فكرة) ، ولا نقول : (نظرية) ، ورغم أن الناس قد فتنوا بهذا النظرية لعدة عقود من الزمن ... سقطت بكل ما ارتبط بها من أفكار أخرى ، وانتصرت حقيقة (الخلق المستقل) التى قررها الدين ، كما أكدها العلم ، فما كان الإنسان إلا بشراً منذ كان ، وما كان القرد إلا قرداً ، وما كانت السمكة إلا سمكة فى عالمها المائى ، وكل ذلك لم يكن إلا طبقاً للمشيئة الإلهية المطلقة ، وإنجازاً للقدرة الكُنّية[1] .

وهنا يطرأ سؤال ، ربما يبدو سابقاً لأوانه فى سياق هذا البحث ، وهو : هل كان وجود هذه الخليقة البشرية إرادة إلهية وأمراً إلهياً واحداً على الأرض ، أرادته القدرة الإلهية ؟ وتابعته فى مراحله المتطاولة ؟ أو كان خلقاً متعدداً متقاطراً على الساحة الأرضية عبر الوجود الزمنى الهائل؟

---

(١) نسبة نقول بها أخذاً من قوله تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (٨٢)﴾[يس]

وكان آدم أحد هذه المراحل .

ذلكم هو ما سنحاول بيانه فيما يلى من الحديث .

غير أننا نقرر هنا رأياً يراودنا ، ونحن نخوض هذا اليم ، أو الخضم من المعلومات والتقديرات المتراوحة بين سبعة آلاف سنة ، وعشرة ملايين من السنين ، والذى نريد أن نقوله إجمالاً : **هو أن الخالق العظيم خلق هذا الكون الهائل حين قال : (كن) فكان .**

أجل .. كان ما كان ويكون وسيكون .. كان الماضى والحال والمستقبل ، كانت الدنيا بكل مكوناتها ، وكانت الآخرة بجنتها ونارها وخلودها ، وما يتضمنه ذلك من بعث وحشر وحساب .

كان كل ما كان ، وما يكون ، وما سيكون ، فى إطار من الزمان المطلق ، والمشيئة المطلقة ، والانكشاف المطلق ، فليس - بالنسبة إلى الخالق - قيود من الزمان ، أو المكان ، أو أية عوامل أخرى ، أما الإنسان فهو نقطة فى بحر الحقيقة .. نقطة محكومة بالزمان والمكان ، وحدود الإدراك - كما أراده الله .

وقد خلق الله هذا الإنسان ليكون سيداً فى الكون الفسيح ، الذى يتزايد ضخامة واتساعاً أو امتداداً ، دون توقف .. بأسرع من سرعة الضوء .

ثم جعل الله سبحانه وتعالى لهذا الكون نهاية ، كما أن له بداية ، وحين تحين هذه النهاية سوف تتغير معالم الكون كله كما قال سبحانه ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨)﴾ [التكوير] . وقال تعالى :

﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات .. (٤٨) ﴾ [ابراهيم] . هل يعقل أن يكون هذا الملك والملكوت من أجل خليقة لا تدوم أكثر من عشرة آلاف سنة؟! أو بتعبير أدق : لا تدوم أكثر من عشرة أيام - بحساب الزمان الإلهي الذي يقرر : ﴿ وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون (٤٧) ﴾ [الحج].. إلخ ... !!

وهب أن ذلك الزمان امتد إلى مليون سنة ، أو حتى عشرة ملايين ، فإن ذلك لا يعدو أن يكون بضعة آلاف من الأيام الإلهية .. ولله المثل الأعلى .

إن ملك الله عظيم ...

وإن شأن الله أعظم ...

ولهذا الإله - تقدست أسماؤه ، وتعاظمت آلاؤه - سجدت الأجساد والأرواح ، وعنت الوجوه والعقول ، ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسًا (١٠٨) ﴾ [طه] ، ومن أجل هذا كان موعد النهاية سرًا مكنونًا لا يعلمه إلا هو .. إنه موعد الزلزال الكوني الذي يضع النهاية لرحلة ملايين السنين .. ﴿ إنهم يرونه بعيدًا (٦) ونراه قريبًا (٧) ﴾ [المعارج] ، ويكفي أن نردد هنا قول الله سبحانه : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم (١) ﴾ [الحج] .

الإنسان بين العلم والقرآن

مرة أخرى نكرر ، ولا نمل التكرار :

لابد أن نسلم بأن معطيات العلم ليست حقائق مطلقة في أغلب الأحيان بل هي رؤى نسبية ، من حيث إن العقل الذي يتوصل إليها مرتهن بقيود من البيئة ، والزمان ، والقدرات الذاتية ، والدلائل المتاحة .. إلخ .

أما القرآن ، وهو الكلمة الإلهية النهائية في الخطاب ما بين السماء والأرض ، أو ما بين الأعلى والأدنى - فإنه ولا شك يقدم للعقل الإنساني الحقائق النهائية في الموضوع . ولكن الأجيال تتفاوت في فهم النص المقدس ، حتى ليبدو ما استخرجه الفكر الديني - حتى الآن من النصوص - مناقضًا للعلم ، ولا سبيل إلى تحقيق اللقاء بينهما .

ونحن - بادئ بدء - نقرر أن التناقض بين القرآن ، وما توصل إليه العلم من حقائق نهائية - مستحيل ، وإنما يأتي التناقض من جهة أن العلم لم يستقر بعد على بر الحقيقة الكاملة ، بل ما زال يدور في إطار النظريات الظنية الدلالة ، إلى جانب أن التناقض قد يا ... عف التفكير الذي تتسم به معالجة الأفكار .

ولننظر - مثلاً - إلى الجمود الذي ا... عند القول بالبداية الآدمية للحياة ... حدود عشرة آلاف عام . وهو تقدير ... الحياة الإنسانية تراوحت ما ب... السنين .

أى بَوْنٍ شاسع بين التقديرين ؟ وهل من سبيل إلى لقاء بينهما ؟

نحن نرى أن ذلك ممكن من خلال فـهم واع للنصوص القرآنيـة .. فَهْمٌ يخرج عن المذهب التـقليدى الذى التزمت به التـفاسير كلهـا ، ويسعى إلى استنطاق النظم القرآنى ، ما دام هناك إمكان لالتقاء العلم بالقرآن .

ولسوف نحاول السير مع القـرآن فى حديثه عن الإنسان والخلق ، منذ الآيات الأولى التى استهل بها الوحى المحمدى ، وسيرا مع هذا الوحى إلى شاطئ الحقيقة القرآنية .

لكن – قبل أن نشرع فى هذا العرض نحب أن نقدم نوعاً من الأحافير ، أو الأعاجيب التى أشارت إليها المراجع العربية . وهى ذات دلالة ومغزى ، يخدم سعينا لتحقيق إمكان اللقاء بين العلم والقرآن ، وإن غلب عليها طابع المبالغات ، وأسلوب الأساطير .

الفصل الثالث

نظرة القدماء إلى وجود الخليقة

إذا كان علماء السلف قد اتفق جـمهورهم على أن آدم هو أول الخليقة ، وأول ما خلق من تراب – فإن بعضهم قد ذهب إلى مـا هو أبعد من ذلك ، فتصوروا لهذه الخليقة وجوداً ممتداً فى أعماق الزمان ، قبل آدم ، ربما إلى مـلايين السنين ، والمهم أن أحـداً ممن قال بهـذا المذهب لم يلق نكيـراً من الفريق الآخر .. بل عاشت الآراء المتناقضـة جنبا إلى جنب ، حتى تلقيناها ورأينا كيف أنار الله بصـيرة الأقدمين فـامتدت رؤيتهم إلى أعمـاق الغيب قبل التاريخ على هذه الأرض ، وتنوعت رؤيتهم تبعاً لاختلاف التخيلات ، وما نحـسب أنهم اعتـمدوا على شواهد مـادية .. بل هى محض تخـيلات هدامم إليها تأملهم المنطقى فى أحوال الدنيـا .. (ذكر المسعودى فى كتابه عن بعض العلماء : أن الله سبحانه وتعالى خلق فى الأرض قبل آدم ثمانياً وعشرين أمة على خَلْقٍ مختلفة ، وهى أنواع

منها ذوات الأجنحة ، وكلامهم قرقعة .

ومنها ما له أبدان كالأسود ، ورؤوس وكلامهم دوىٌّ .

ومنهـا ما له وجهـان ، واحد من ق كثيرة .

ومنهـا ما يشـبه نصف الإنسـان بيدٍ ورجلٍ ، وكـلامهم مـثل صيـاح الغرانيق[1] .

ومنهـا ما وجـهه كـالآدمى ، وظهره كـالسلحفـاة ، وفى رأسه قـرن ، وكلامهم مثل عوى الكلاب .

ومنها ما له شعر أبيض ، وذنب كالبقر .

ومنها ما له أنياب بارزة كالخناجر ، وآذان طوال .

ويقال : إن هذه الأمم تناكحت وتناسلت حتى صـارت مائة وعـشرين أمة (المستطرف / ٣٩٨) .

هذه صورة من تفكير الأقـدمين أو تخيلاتهم عن الماضـى السـحيق قبل هذه الخليقة ، فقد لفـقوا أشكالاً من المخلوقات لا دليل على أنها وجدت إلا فى الاحتمال الخيالى ، ومع ذلك يبقى ـ بعـد استبعاد ما لا دليل عليه من الأشكال ـ أن الأرض كانت معمـورة قبل آدم ، سواء بمثل تلك الأصناف ، أو بأصناف أخرى كالديناصـورات ، أو الماموث أو بأوادم آخرين قبل آدم ـ أبينا ـ على مـا قـرره بعض العلمـاء ، أى : إن آدم لم يكن أول مـخلوق عاقل على هذه الأرض .

ومن المؤكـد أن أمما كثـيرة من المخلوقـات كانت مـوجودة قبل ظـهور الإنسان ، كـأمم الطير ، والحـيوان ، والنبات ، وهى كلـها أمم بنص الآية الكريمة ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. (٣٨) ﴾ [الأنعام] ، وإذا كان النص صريحاً

(١) الغرنوق : طائر مائى أبيض طويل الساق ، حـمـيل النظر ، له نزعة ذهبية اللون والجمع : غرانيق .

فى دواب الأرض والطيـر ـ فإن النبات فى نظر العلـماء كـائن نام ، على اختلاف أشكاله وفـصـائله ، والآية الكريمة تشيـر إلى حقيقـة مذهلة ... تأتى فاصلتها ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) ﴾ [الأنعام] ، وفى ذلك ... من المناقشات حفلت بها كتب التفسير .

أما عن اهتـمام العلمـاء بالتفـتيش أو بملاحظة مـا يجدون صـدفة فى الأرض ، ومتابعـة آثار الأحياء فيـها ، واستدلالهم بشواهدهـا على ... الحياة البشرية وعهودها السحيقة ـ فذلك أمر لم تتوافر أدواته للأقدمين ولا تهـيـأت أسـبـابه إلا فى عـصـرنا الحـديث مـع تطور علوم الأ... (الجيولوجيا) والإنسـان (الأنثروبولوجيا) ، والأساطير (الميثولوجيا) والتحليلات الكربونية .. وغيرها .

ولكن كان للأقدمين فكرة عن الإنسان القديم ، ولم تكن أفكارهم ... فى تقديـر تاريخ الحياة علـى الأرض إلى أبعد من حديث القرآن عن ... ونوح ، وعاد وثمود ، وقوم إبراهيم وقوم لوط .. إلخ .

وهذه عهود قريبة نسبياً كما سبق أن قررنا ، وهى لم تتجاوز ... ألف عام ، وهم معذورون قطعاً فيما ذهبوا إليه .

وقـد اعتـمد بعـضهم على مـشاهداته لقـطع ... وبقايا ... عظمية، حاولوا تفـسيرها ووصفها بقدر مـا رزة ... حياة الماضـين وأوصـاف هيئاتهم الجسـمية ... الذى تصفـه الأحافـير التى عثر عليهـا العلم... الأحافير التى وصفهـا السلف ـ وجدت الآ... فى عهوده السحيقة . لكن المشكلة أن شب...

الآن . ولئن صح أنه وجد ، فهو وجود مقرون بالمبالغة والتزيد ، حتى طمست الحقيقة ، وضاعت معالمها ضياعاً نهائياً .

ونذكر عينة من هذه الأخبار ، يذكر مؤلف كتاب (المستطرف في كل فن مستظرف) : (قال الشيخ عبد الله ، صاحب كتاب تحفة الألباب : دخلت إلى باشقرد ، فرأيت قبور عاد ، فوجدت سنَّ أحدهم طوله أربعة أشبار ، وعَرْضُه شبران ، وكان عندي في باشقرد نصف ثنية أخرجت لي من فك أحدهم الأسفل فكان نصف الثنية شبرين ، ووزنها ألف ومائة مثقال ، وكان دور فك ذلك العادي سبعة عشر ذراعاً ، وطول عظم عضد أحدهم ثمانية أذرع ، وعرض كل ضلع من أضلاعهم ثلاثة أشبار ، كلوح الرخام) .

وقد يكون هذا الوصف من باب المبالغة المسرفة ، لأن مشاهدة المومياوات المتحفية التي مضى عليها خمسة آلاف سنة مثلاً ـ تبين لنا أن حجم الإنسان كان بنفس الحجم الحالي ، دون أدنى علاقة بما يصفه الشيخ عبد الله في كتابه المشار إليه ، ولذلك يبدو لنا أن للخيال دوراً في تضخيم حجم ما يزعم رؤيته من بقايا قوم عاد ، وربما كان ذلك من باب (الحواديت) التي جاء منها ألوان وأشكال في كتاب (ألف ليلة وليلة) . أو ربما كان ما وجدوه بهذا الوصف بقايا حيوان هائل ، كالديناصور مثلاً ، أو الأفيال الضخمة ، التي تقاس أنيابها بالأشبار ، وزعم الواصف أنه يصف إنساناً من قوم عاد .

ويستمر الشيخ فيقول : (ولقد رأيت في بلغار ، سنة ثلاثين وخمسمائة ـ نسل عاد رجلاً طويلاً ، طوله أكثر من سبعة وعشرين ذراعاً ، كان يسمى دنقي أو دبقي ، وكان يأخذ الفرس تحت إبطه ، كما يأخذ

الولد الصغير ، وكان من قوته يكسر بيده ساق الفرس ، ويقطع جلده وأعصابه كما يقطع باقة البقل ، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً تحمل على عجلة ، وبيضة عادية لرأسه ـ كأنهما قطعة من جبل ، وكان يأخذ في يده شجرة من البلوط كالعصا ، لو ضرب بها الفيل لقتله ، وكان خيِّراً متواضعاً ، كان إذا لقيني يسلم عليّ ويرحب ، ويكرمني ، وكان رأسي لا يصل إلى ركبته ، رحمة الله عليه ، ولم يكن في بلغار حمام يمكنه دخولها ، إلا حمام واحد ، وكانت له أخت على طوله ، ورأيتها مرات في بلغار ، وقال لي قاضي بلغار ، يعقوب بن النعمان : إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها ، وكان اسمه آدم ، وكان أقوى أهل بلغار ، قيل: (إنها ضمته إليها فكسرت أضلاعه ، فمات من ساعته) (المستطرف / ٣٩٨) .

وقد تأثرت آراء الأقدمين من العلماء بما ورد في العهد القديم من أساطير عن الإنسان القديم ، ولا سيما قصة عوج بن عنق ، وهي أحد معالم الحياة القديمة التي كانوا يتسلون بروايتها ، وقد كان المستمعون يبهرون بتفاصيلها ، ويتصورون أنها تعبر عن واقع شهدته الأجيال القديمة .

(روى عن وهب بن منبه في عوج بن عنق أنه كان من أحسن الناس وأجملهم ، إلا أنه كان لا يوصف طوله ، قيل : إنه كان يخوض في الطوفان فلم يبلغ ركبتيه . ويقال : إن الطوفان علا على رؤوس الجبال أربعين ذراعاً ، وكان يجتاز بالمدينة فيتخطاها كما يتخطى أحدكم الجدول الصغير ، وعَمَّرَهُ الله دهراً طويلاً حتى أدرك موسى عا
جباراً في أفعاله ، يسير في الأرض براً وبحراً ، ويقـ
إنه لما حصرت بنو إسرائيل في التيه ذهب فأتى

قدرهم . واحتملها على رأسه ليلقيها عليهم ، فبعث الله طيراً فى منقاره حجر مدور ، فوضعه على الحجر الذى على رأسه ، فانثقب من وسطه ، وانخرق فى عنقه ، وأخبر الله عز وجل نبيه موسى عليه السلام بذلك فخرج إليه وضربه بعصا فقتله ، ويقال : إن موسى عليه السلام كان طوله عشرة أذرع وعصاه عشرة أذرع ، وقفز فى الهواء عشرة أذرع وضربه فلم يصل إلى عرقوبه . فتبارك الله أحسن الخالقين) .

والعجيب أن يزعم راوى الأسطورة أن عوجاً عاش ـ وهو الحفيد لآدم ـ حتى عهد موسى ، أى : أكثر من سبعة آلاف سنة ؟؟...

وتمضى الأسطورة فتحكى عن عنق أم عوج فتقول : (عنق بنت آدم عليه الصلاة والسلام ؟؟) ، وكانت منفردة بغير أخ ، وكانت مشوهة الخلقة . لها رأسان ، وفى كل يد عشرة أصابع ، ولكل أصبع ظفران كالمنجلين) ، وقال على ابن أبى طالب : (هى أول من بغى فى الأرض ، وعمل الفجور ، وجاهر بالمعاصى ، واستخدم الشياطين ، وصرّفهم فى وجوه السحر . فأرسل الله عليها أسداً أعظم من الفيل فهجم عليها وقتلها ، وذلك بعد ولادة عوج بسنتين) .

إننا لم نأت بكل ما قيل عن عنق وولدها عوج ، وقد اختصرنا شيئاً من أخبارهم لكى تظهر ما بلغته الأساطير من السيطرة على عقول الناس قديماً ، وحين تأتى الأساطير فى كتاب مقدس مثل التوراة ـ فإنها تستبد بعقول الأتباع ، وتحجب عن أبصارهم بصيص العقل ، وهو ما غرقت فيه عقول كثيرين طوال قرون عديدة .

حديث القرآن

جدير بنا أن نذكر السور القرآنية التى تعرضت لقصة الخلق ، وما يتصل بها ، مرتبة حسب النزول ، لنتابع من خلال هذا الترتيب تدافع معانى الوحى القرآنى ، ومنهجه فى سوق الأحداث والحقائق . كما أراد الله للإنسان أن يتعلمها ، وقد جاء الترتيب هكذا :

رقم السورة حسب النزول	اسم السورة	ملاحظات
١	العلق	الإشارة الأولى للإنسان
٤	المدثر	الإشارة الأولى للبشر
٧	الأعلى	﴿ الذى خلق فسوى ﴾ (لأول مرة)
٢٧	التين	إشارة عامة لخلق الإنسان ﴿ فى أحسن تقويم ﴾
٣٠	القيامة	الذكر والأنثى ـ نطفة من ﴿ منى يمنى ■ ثم كان علقة فخلق فسوى ﴾
٣٢	المرسلات	إشارة إلى الماء المهين ، والقرار المكين
٣٣	ق	إشارة إلى حضور الله فى خلقه

رقم السورة حسب النزول	اسم السورة	ملاحظـــات
٣٥	الطارق	إشـــارة إلى مـــادة الخلق في الصلب والترائب والماء الدافق الذى يخرج من بينهما .
٣٧	ص	قصة الخلق والملائكة وإبليس للمرة الأولى (دون ذكر آدم)
٣٨	الأعراف	الخلق والتصوير ثم قصة آدم والملائكة وإبليس - (آدم يذكر للمرة الأولى)
٤٠	يس	﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾
٤١	الفرقان	الماء والبشر ، والنسب والصهر.
٤٢	فاطر	﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً ﴾
٤٣	مريم	﴿ أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾
٤٤	طه	﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ آدم وحياته الأرضية
٤٩	الإسراء	اعتراض إبليس على السجود للطين . وحوار بين الله وبينه .

رقم السورة حسب النزول	اسم السورة	ملاحظـــات
٥٣	الحجر	الخلق من صلصال من حمأ مسنون إلى آخر القصة.
٥٤	الأنعام	إشارة إلى الخلق من الطين لا شك في هذا .
٥٥	الصافات	إشارة إلى الخلق من الطين اللازب.
٥٩	غافر	إجمال مراحل الخلق والشيخوخة.
٦٨	الكهف	علاقة التراب بالنطفة ﴿ ثم سواك رجلاً ﴾
٦٩	النحل	﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾
٧٠	نوح	الأطوار ، والإنبات من الأرض والعودة إليها.
٧٢	الأنبياء	الحياة من الماء ﴿ من الماء كل شيء حي ﴾
٧٣	المؤمنون	تفصيل مراحل الخلق ﴿ من سلالة من طين ﴾
٧٤	السجدة	﴿ بدأ خلق الإنسان من طين ■ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾

رقم السورة حسب النزول	اسم السورة	ملاحظـــات
٨١	الانفطار	﴿ خلقك فسواك فعدلك ﴾
٨٣	الروم	الخلق من تراب ثم الانتشار على الأرض بشراً .
٨١	البقرة	الخلافة والسجود من الملائكة والتمرد من إبليس.
٩٣	النساء	الخلق من ﴿ نفس واحدة وخلق منها زوجها ﴾
٩٨	الرحمن	الخلق والبيان ـ ﴿ من صلصال كالفخار ﴾ خلقه فعلمه فصار إنساناً
٩٩	الإنسان	﴿ حين من الدهر ﴾ هو الماضي البشري ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾
١٠٤	النور	﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾ ، وأشكال الخلق
١٠٥	الحج	تقرير كامل ونهائي عن خلق الإنسان ومراحله.
١٠٨	الحجرات	ذكر وأنثى ـ شعوب وقبائل ـ تعارف . حضارة.

لقد بدأ القرآن ومضته الأولى بالآيتين الكريمتين : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② ﴾ [العلق] ، وهي بداية رائعة ، تتضمن تعريف الله سبحانه وتعالى لذاته ، وهو يخاطب مصطفاه محمداً خطابه الأول ، ولتحقيق هذا الغرض يذكر من صفاته الحسنى صفة (الخالق) ، وليس دون هذه الصفة إمكان للتعرف ، وفي الحديث القدسي (كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف ، فخلقت الخلق ، فبي عرفوني) ، وبدهي أن يتعرف المخلوق على خالقه ، سيما وهو يخاطبه ، ويعرفه بنفسه ، ويزوده بأدق المعلومات عن أصل الصنعة : ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ، وهي معلومة موضوعية خالصة .

وبدهي أيضاً أن يثير هذا السؤال في نفس المخاطب (محمد) أشواقاً إلى معرفة لا نهاية لها ، وتطلعاً إلى إدراك العلاقة بين (العلق) في مهانته ، وقلة شأنه ، و (الإنسان) في مهابته وعظم شأنه ، في شخص المخاطب الأول بهذا الكلام (محمد المصطفى) صلى الله عليه وسلم .

ويأتي بعد ذلك الحديث القرآني الثاني عن (الإنسان) فإذا هو لا يذكره بلفظه .. بل يستخدم لفظاً آخر يدل عليه ، هو (البشر) ، وذلك في الصورة الرابعة من التنزيل العزيز ، صورة (المدثر) ، وترد فيها لفظة (البشر) أربع مرات في الآيات : (٢٥) ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ ، و (٢٩) ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ ، و (٣١) ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ③١ ﴾ ، و (٣٦) ﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ③٦ ﴾ .

ولا ريب أن مدلول الكلمة في الآيات الأربع يعني المخلوق المخاطب بالآيات المنزلة من الوحي ، أي : الإنسان في عمومه . ثم لم ترد كلمة

(البشـر) بعد ذلك فى جملة من السور بترتيب النزول ، حتى السورة السادسة والثلاثين ، وهى سورة القمر ، وذلك فى سياق قصة النبى صالح مع قومه ثمود ، حين قال قائلهم : ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ .. (٢٤)﴾ [القمر]

بيد أن الإشارة التى تعتبر إضافة إلى المفهوم الأول للخلق باعتباره المرحلة الأولى – جاءت فى الصورة السابعة (فى ترتيب النزول) ، وهى سورة الأعلى ، فذكرت المرحلة الثانية فى إيجاد الخلق ، وهى مرحلة التسوية ، فقال تعالى : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢)﴾ [الأعلى] ، والتسوية عمل إلهى سوف يرد ذكره باعتباره دائماً الخطوة الثانية فى بناء هذا الخلق .

والمذكور هنا هو مطلق الخلق ، ومطلق التسوية ، دون ذكر لمحلهما ، وهل هو البشر ، أو الإنسان ، لكن السياق يصرف العبارة إلى بيان ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ الذى أشارت إليه السورة الأولى .

ثم جاء ذكر (الإنسان) فى سورة التين ، وهى السورة السابعة والعشرون نزولاً ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦)﴾ [التين] ، والإشارة هنا إلى (الإنسان) الذى خلق من علق ، وعلمه الله ما لم يكن يعلم ، فانقسم هذا الإنسان إلى مستوى رفيع ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ، ومستوى وضيع ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ، وهو وصف للواقع الذى يخاطبه الوحى القرآنى فى مكة : أناس آمنوا فارتفعوا ، وأناس كفروا فاتضعوا .

ثم يعود القرآن إلى خلق الإنسان فى سورة القيامة ، وهى السورة الثلاثون نزولاً ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩)﴾ [القيامة] ، وفى هذه الآيات إشارة إلى المرحلة السابقة على : ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ، وهى مرحلة النطفة من المنى يقذفها الرجل فى رحم المرأة ، لتصبح من بعد علقة يتخلق منها الذكر والأنثى .

وتضمنت الآيات – مما أدركه العلم الحديث – إشارة دقيقة إلى أن تحديد نوع الجنين ، ذكراً كان أو أنثى ، يتوقف على منيّ الرجل ، لا على بويضة المرأة .

وهكذا أفادت هذه الآيات مزيداً من المعرفة بعملية الخلق وتفسيره ، فهى فى الحقيقة بيان لما أجمله النص الأول فى سورة العلق .

وكان حرص القرآن فى تلك المرحلة الأولى على تأكيد العلاقة بين الحياة والموت والبعث ، فهو فى آيات القيامة يختمها بقوله : ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾ [القيامة] ، وهو فى السورة التالية لها ، سورة المرسلات (الثانية والثلاثين نزولاً) يعيد هذه الحقيقة فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)﴾ [المرسلات] ، وهو هنا يصف (المنىّ) المذكور فى سورة القيامة بأنه (ماء مهين) ، ولكن القدرة المقدرة هى التى جعلت هذا الماء إنساناً سوياً .

ونزلت بعد ذلك سورة (ق) وهى السورة الثالثة والثلاثون – لتفيد

حضور الله في نفس الإنسان : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) ﴾ [ق] ، فكيف يفلت الإنسان من قبضة الله ؟؟

ثم يأتى النص في سورة (الطارق) ليضيف مزيداً من المعلومات عن الماء الدافق (المنى) الذى يخرج من بين الصلب والترائب ، وهى معلومة لم تكن معروفة حتى عصرنا ، و (الطارق) هى السورة الخامسة والثلاثون نزولاً .

ثم نزلت سورة (ص) تذكر قصة الخلق لاول مرة ، وهى السورة السابعة والثلاثون نزولاً ، قال سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) ﴾ [ص] .

هذا النص القرآنى يتضمن لاول مرة أساسيات القصة ، قصة الخلق ، من بدايتها إلى منتهاها ، وكل ما جاء بعد ذلك من نصوص القران متحدثاً عن هذه القصة - يضيف بعض التفاصيل التى تثرى جوها ، وتوضح بعض غوامضها .

والأساسيات التى نقصدها فى القصة هى :

١ - إخبار الله للملائكة بانه سيخلق البشر .

٢ - خلق البشر من طين - التسوية - النفخ من روح الله - الإنسان .

٣ - أمر الملائكة ومعهم إبليس بالسجود للمخلوق عند استوائه واكتماله .

٤ - سجود الملائكة أجمعين .

٥ - رفض إبليس للسجود استكباراً .

٦ - ادعاؤه الخيرية على هذا المخلوق بخيرية النار على الطين .

٧ - طرد إبليس وإمهاله إلى يوم الدين .

٨ - توعد إبليس بغواية بنى آدم ، إلا المخلصين .

٩ - وعيد الله بجهنم لمن اتبع إبليس .

هذه الأساسيات تتكرر فى جميع المواضع الأخرى فى السورة التالية ، ولكنها تزيد بعض التفاصيل المثرية - كما قلنا - وهو ما نلاحظه مثلاً فى السورة التالية نزولاً - السورة الثامنة والثلاثين ، وهى سورة الاعراف .

غير أننا نلاحظ بداية أن القصة فى سورة (ص) لم تتضمن ذكر آدم - بل اقتصرت على الإشارة إلى أن المخلوق - موضوع الحديث - هو (بشر) بحسب ، ثم جاءت سورة الأعراف لتذكر آدم للمرة الأولى فى الوحى القرآنى ، فكان ذلك تفصيلاً بعد إجمال ، ومع ملاحظة أن السورتين متتاليتان ، ولكى نعرض تفاصيل القصة نتابع مناقشة كل أساسية على حدة .

الفصل الخامس

أولاً : إعلام الملائكة

قول الله سبحانه وتعالى للملائكة : ﴿إنِّي خَالِقٌ بَشَراً﴾ ، وهي عبارة تحمل كثيراً من المعاني ، ذلك أن الآية تبدأ بعبارة : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ ﴾ ، فهي تستخدم لفظة (الرب) مضافة إلى ضمير المخاطب ، وهو : (محمد ﷺ) ، على نسق ما جاء في الخطاب الأول : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ، وهي إضافة تقرب النبي من حضرة ربه ، وتدنيه من جلاله ، وهو ما جرى عليه الوحي في السور الأولى بشكل عام .

لكن .. كيف قال (ربك) ؟ وكيف تلقت الملائكة هذا القول ؟ ذلك ما لا سبيل إلى إدراكه ، وإن كان هنالك سبيل إلى تأويله : فالرب إذا تكلم فكلامه ليس بحرف ، ولا صوت ، وهذه صفة كلامه النفسي كما قررها علماء الكلام ، ولكن إدراك الخطاب الإلهي يتحقق في كل جنس بحسبه ، فإذا تلقى الإنسان ذلك الخطاب فمن خلال الحرف ، والصوت ، واللغة ، وإذا تلقته الملائكة فمن خلال قدراتها التي تختلف عن قدرات الإنسان ، لاختلاف طبيعتها عن طبيعته ، ولا مانع من أن يكون بلغة ما .. كيفما فطر الله ملائكته

أما كيف تم هذا الحوار فخوض في غمار الغيب المحجوب ، والحديث فيه اتباع لما تشابه من آيات الله ، ونسأل الله أن يباعد بيننا وبين الفتن ،

وأن يلهمنا القدرة على تأويل هذه المتشابهات بما يليق بجلاله . وكل ما يعنينا هو التسليم بصدق الخبر ، ووقوع الحوار ، ولله فى ذلك حكمة هو أعلم بها .

ولا ريب أن تلقى النبى ﷺ لهذا الخطاب كان مختلفاً عن تلقينا له ، باعتبار أنه أعلم بربه وأنه ذو اتصال بالملأ الأعلى (عالم الملائكة) ، منذ جاء الروح الأمين بالوحى ، فإذا خاطب الله نبيه فإن لهذا الخطاب موقعه من نفس النبى ، حتى تكاد قدراته الروحية ترفعه إلى مرتبة الشهود ، استشفافاً لما وراء الكلمات المنزلة ، واستشرافاً للحضور القدسى ، فهو ماثل على الأرض ، وهو فى نفس الوقت يعاين من آيات ربه ما لا يعاين الجلوس من حوله ، إن كان الوحى بمحضر منهم .

أما الملائكة فحسبنا من وصفهم ما جاء بشأنهم فى القرآن ، فهم : ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ ، وهم لا يسبقون الله سبحانه ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء] ، وهم كذلك : ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم] .

ووصفهم القرآن أيضاً فى مطلع سورة فاطر أو (الملائكة) ـ بقوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ .. ﴿١﴾﴾ [فاطر]

ولا ريب أن لهذه الأوصاف معانى محددة لا نستطيع أن نحيط بها علما وحسبنا هنا أن ننقل عن تفسير (المنار) ما قرره الأستاذ الإمام محمد عبده ، حين تحدث عن الملائكة ، فقال : (أما الملائكة فيقول السلف :

إنهم خلق أخبرنا الله تعالى بوجودهم ، وببعض عملهم ، فيجب علينا الإيمان بهم ، ولا يتوقف ذلك على معرفة حقيقتهم ، فنفوض علمها إلى الله تعالى. فإذا ورد أن لهم أجنحة نؤمن بذلك، ولكننا نقول : إنها ليست أجنحة من الريش ونحوه كأجنحة الطيور ، إذ لو كانت كذلك لرأيناها ، وإذا ورد أنهم موكلون بالعوامل الجسمانية ، كالنبات والبحار فإننا نستدل بذلك على أن فى الكون عالماً آخر ألطف من هذا العالم المحسوس ، وأن له علاقة بنظامه وأحكامه ، والعقل لا يحكم باستحالة هذا ، بل يحكم بإمكانه ، ويحكم بصدق الوحى الذى أخبر به) .

ثم قال : (وأما الفائدة فيما وراء البحث فى حقيقة الملائكة ، وكيفية الخطاب بينهم وبين الله تعالى فهى من وجوه :

أحدها : أن الله تعالى فى عظمته وجلاله يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته فى صنعه ، وما يخفى عليهم من أسراره فى خلقه ، ولا سيما عند الحيرة . والسؤال يكون بالمقال ، ويكون بالحال والتوجه إلى الله تعالى فى استفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه التى جرت سنة الله تعالى بأن يفيض منها (كالبحث العلمى ، والاستدلال العقلى ، والإلهام الإلهى) . وربما كان للملائكة طريق آخر لاستفاضة العلم ، غير معروف لأحد من البشر ، فيمكننا أن نحمل سؤال الملائكة على ذلك[1] .

(١) تفسير المنار ١/٢١٢ - ٢١٣ .

ثانيا : خلق البشر من طين

ونص إعلام الله للملائكة يأتي هكذا ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص] واستخدام الصيغة (خالق) هنا يفيد الإحداث .. أي : الإيجاد من عدم ، والسؤال هو : هل هذه الصيغة في موقعها تفيد المضي ، أو المستقبل ؟ ونرى أنها تفيد المضي ، أي : إن الله كان قد خلق هذا البشر قبل الإعلام [illegible] ، وقد أراد أن يخبر الملائكة تهيئة لهم ، حتى يتابعوا أحوال المخلوق ، خلال مراحل التسوية ، والنفخ الإلهي – كيما يقعوا له ساجدين – كما أمر [illegible] . ولعل ذلك (الخلق) داخل في الأمر الأزلي (الخالق) (كن) وهو [illegible] تعرف الملائكة كل تفاصيله ، إلا أن يأذن لها الله بذلك . أما بقية الإعلام فيتضمن ذكر (البشر) و(الطين) ، والعلاقة بينهما .

فأما البشر فهي تسمية لذلك المخلوق الذي أبدعه الله تعالى من الطين . [illegible] في اللغة من (ب ش ر) ، وهو يفيد (الظهور مع حسن وجمال) ، [illegible] ابن فارس : (هو أصل واحد : ظهور الشيء مع حسن وجمال ، [illegible] البشر بشرا لظهورهم[1] وفي المعجم الكبير : البشر .. الإنسان ، [illegible] والأنثى ، وللواحد والمثنى والجمع ، وقد يثنى كما جاء في القرآن : ﴿[illegible] لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون] ، وقد يجمع على (أبشار)[2] لكن [illegible] فيه إفراده ، مع ملاحظة أن الكلمة جامدة ، لا تتصرف بوجه [illegible] . والمعنى المتناسب هنا هو ظهور هذا المخلوق من بين تراب [illegible] من طين ، كما ورد ذلك في الإسراء ، والأنعام ، والصافات ،

---

[1] [illegible] ١/٢٥١

[2] [illegible] ٢/٣٢٥ ، وسوف يتحدد المعنى في سياق المعالجة .

وكان خلقه بكل بساطة كما ظهرت النباتات ، وهو قوله تعالى في سورة نوح (السبعين نزولا) : ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [نوح].

ومع أن كل حيوان أو طير أو حشر – إلى آخر سلسلة الكائنات – هو من طين ، فإن البشر هو أبرز هذه المخلوقات ، وآكدها وجودا ، فلذلك أطلق عليه في القرآن (البشر) .. أي : الظاهر على كل الكائنات الطينية .. يسخرها لخدمته ، ويستمد منها قُوتَهُ وقُوَّتَهُ ، ويصارع وجودها تامينا لوجوده .

وربما كان إطلاق كلمة (بشر) أيضا بهذا المعنى ، وهو (الظهور) – مقابلا لما يتصف به عالم الملائكة ، وعالم الجن ، من عدم الظهور ، فهم خلق لا يُرَى ، وقد قرر القرآن ذلك بشأن (الجن) ، إذ هي كلمة مشتقة من معنى : (الاجتنان) وهو الاستتار ، والله يقول عن الشيطان وقبيله: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ..﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف] ، فالظهور في البشر ، والخفاء في الجن – هما حقيقة الحياة التي تعمر هذه الأرض ، على اليابسة ، والماء ، وفي جو السماء .

والعجيب أن للعربية هنا تميزا وتفوقا على اللغات الأخرى ، فقد حققت بهذا اللفظ (بشر) تطابقا عجيبا مع معناه ، وكأنما كانت تستملي الغيب ، وتستقرئ أستاره ، ليمنحها هذه اللفظة ، دون اللغات الأخرى في الفصيلة السامية ، بل دون ما عهدنا من اللغات الأوروبية .

فاللغات السامية كالسريانية ، والحبشية ، والآرامية – لا تعرف كلمة (بشر) ، بل ولا تعرف كلمة (إنسان) ، وإنما المستخدم فيها هو ما يؤخذ من كلمة (آدام) ، أو (بني آدام) ، وقد عرفت العبرية هاتين

الكلمتين فعلا للدلالة على (الإنسان) ، وأما (بشر) فقد جاء في سفر التكوين لفظها بالسين (بسر) ، وهي بمعنى (لحم) ، وبمعنى (نفس) في عبارة العهد القديم : (كل بسر حى) ، أى : كل نفس حية[1] .

غير أن هذه الكلمة (بسر) على خلاف القاعدة الغالبة بين العربية والعبرية ، فنحن نعرف أن ما ينطق بالسين في العربية هو في العبرية بالشين ، مثل : سلام وشالوم ، وسماء وشماى ، وطردا لهذه القاعدة كان الانسب أن تكون بالسين في العربية وبالشين في العبرية ، لكن ما حدث هو العكس .

هذا من ناحية اللفظ ، وأما من ناحية المعنى فهناك اختلاف كامل بين معنى الكلمة (بشر) في العربية ، ومعنى (بسر) في العبرية .. وهي علامة استفهام تحتاج إلى إجابة حاسمة .

وفي الفارسية استخدمت الالفاظ العربية ، مع كلمة (مَرْد) ، وهي الوحيدة في اللسان الفارسي بمعنى (رجل ونفر وشخص وإنسان) ، وهي أيضا كلمات مستخدمة فيها .

وفي اللغة الاردية استخدمت كلمة (آدمى) في ترجمة كلمة (بشر) ، واستخدمت كلمة (إنسان)[2] .

وأما اللغات الغربية فمنها الإنجليزية ، وقد استخدمت كلمة (man) بمعنى (بشر وإنسان) ، وقد استخدم محمد بكثال في ترجمته للقرآن

(١) معلومات مستقاة بواسطة الزميل الدكتور عبد الرحمن عوف - رحمه الله - أستاذ العبرية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

(٢) قرآن حكيم - أردو ترجمة - سيد بشير احمد .

كلمة mortal بمعنى (بشر) ، وكلمة man بمعنى (إنسان) ، في حين استخدم المترجم عبد الله يوسف على كلمة man في كلا المعنيين . ومع أن الإنجليزية عرفت كلمتين هما : mankind و human being ، فإن كلتيهما ذات علاقة بمعنى (إنسان) .

وكذلك الفرنسية ، فقد جاء في ترجمة دنيس ماسون استخدام كلمة homme مقابل (إنسان) ، و mortel مقابل (بشر) ، وفي ترجمة صلاح الدين كشريد homme : إنسان ، etre humain : بشر ، واقتصر محمد حميد الله على كلمة homme للمعنيين ، في حين استخدم جاك بيرك homme : إنسان ، و humain : بشر .

ولا يخفى أن المراد بكلمة mortel هو : الفاني أو الهالك ، في حين تعني عبارة etre humain أو human being : كائن إنساني ، فلم تعرف اللغتان ما عرفته العربية لكلمة (بشر) من تقابل معناها مع المقصود بكلمة (جن أو ملك) ، أو دلالتها على الحسن والجمال .

وقد استخدم مترجم القرآن إلى اللغة المجرية كلمة ember وهي بمعنى : (إنسان) في ترجمة كلمة (بشر)[1] .

كما استخدمت اللغة التركية كلمة (إنسان) في الموضعين[2] .

ومهما تتبعنا ترجمات القرآن في اللغات المختلفة فإننا لا نجد سوى كلمة منه في مراجعتنا لمجموعة الترجمات التى أصدرها مجمع الملك فهد ابن عبد العزيز بالمدينة المنورة ، وقد بلغت عدتها تسع عشرة ترجمة

(١) ترجمة القرآن إلى اللغة المجرية - كوتفيك ميلكون - سورة الحجر - ص ١٨٤ .

(٢) ترجمة القرآن إلى اللغة التركية - مجمع الملك فهد - المدينة المنورة - ص ٢٦٣ .

باللغات الإسلامية وغيرها ، وهو دليل على أن مترجمى القرآن لا يجدون فى لغاتهم سوى كلمة واحدة للمعنيين ، وهى دائماً بمعنى (إنسان) .

■ ■ ■

استعمالات القرآن لكلمة (بشر)

ولو اننا تابعنا استعمال القرآن لهذه الكلمة فستجد أنها استخدمت فى نفس السياق ، وبنفس المعنى (مخلوق ظاهر مع حسن وجمال) ، فى اربعة مواضع هى قوله تعالى (على ترتيب النزول) :

١ - ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) ﴾ [ص]

٢ - ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا (٥٤) ﴾ [الفرقان]

٣ - ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) ﴾ [الحجر]

٤ - ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) ﴾ [الروم]

اما بقية المواضع فقد استخدمت فيها الكلمة بمعنى عام ، هو (مخلوق غير متميز) ، او بمعنى أعم : (مخلوق) ، فإذا أريد تمييز هذا المخلوق ألحقت الكلمة بوصف مميز ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) ﴾ [مريم] ، أى : مخلوقاً معتدلاً ، لا إفراط ولا تفريط ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾ [الإسراء] ، أى : مخلوقاً مرسلاً من الله ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ .. (٦) ﴾ [فصلت] ، فهو مخلوق متميز على كل المخلوقات بالوحى المنزل .

وقد يُضمَرُ الوصف ويبرزه السياق ، كما فى قوله تعالى : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) ﴾ [يوسف] ، فمع أن كلمة (بشراً) هنا نكرة، فإن السياق يفيد أن المشار إليه ، وهو (الجمال) ليس جمال مخلوق بشر .. بل هو جمال ملك كريم ، وهى جملة تأتى على سبيل المبالغة ، وإلا فالملك الكريم مخلوق أيضا كالبشر ، والمعنى فى النهاية : هذا بشر جميل فائق الجمال ، حتى فاق جنسه ، ودخل فى جنس آخر أجمل وأرقى .

وقد جاء استخدام اللفظة بالمعنى العام فى قوله تعالى : ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ .. (٢٤) ﴾ [القمر] ، وهو إنكار من قوم ثمود أن يكون صالح بشراً متميزاً عليهم ، وهو قول تكررت روايته فى القرآن فى نفس السياق القصصى : ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا .. (١٥٤) ﴾ [الشعراء] ، فعدم التميز هنا يعتبر وصفاً كالتميز تماماً .

واستخدمت الكلمة بالمعنى الأعم فى مثل قوله تعالى على لسان مريم : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ .. (٢٠) ﴾ [مريم] ، أى : مخلوق على الإطلاق .

ولم تخرج الكلمة فى الاستعمالات القرآنية عن هذا الإطار ، مع ملاحظة أنها وردت فى الوحى المكى فى سبعة وعشرين موضعاً ، ولم ترد فى الوحى المدنى إلا فى أربعة مواضع ، مقتصرة على إفادة معنى (مخلوق) فقط . وهى الآيات :

١ - ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ .. (٤٧) ﴾ [آل عمران]

٢ - ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة .. ﴾ (٧٩) [آل عمران]

٣ - ﴿ فقالوا أبشر يهدوننا .. ﴾ (٦) [التغابن] .

٤ - ﴿ بل أنتم بشر ممن خلق .. ﴾ (١٨) [المائدة] .

وخلاصة القول أن الكلمة جاءت في القرآن بمعان أربعة :

الأول البشر هو : الظاهر على كل الكائنات (وهو المعنى الأصلي)

الثاني : المخلوق بإطلاق (وهو المعنى الأعم)

الثالث : المخلوق غير المتميز (وصف سلبي)

الرابع : المخلوق المتميز (وصف إيجابي)

ومن الواضح أن المعنى الأصلي الحقيقي هو المعنى الأول . أما المعاني الثلاثة الأخرى فهي معان سياقية يمكن اعتبارها توسعا في استخدام المعنى الأصلي ، وهو فيما لاحظنا أكثر شيوعاً في الاستعمال القرآني .

الفصل السادس

أولا : حقيقة الطين

أما الطين فقد جاء في مواضع مختلفة بهذا اللفظ ، والمقصود به إجمالاً : (تراب + ماء) . وقد بادر النص الكريم إلى ذكر (الماء) أصلاً لخلق البشر - والماء أحد طرفي المعادلة - في قوله تعالى في سورة الفرقان (الحادية والأربعين نزولاً) قال سبحانه : ﴿ وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا .. ﴾ (٥٤) [الفرقان] ، وهي إشارة تدخل في عموم قوله تعالى : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي .. ﴾ (٣٠) [الأنبياء] ، وسورة الأنبياء هي الثانية والسبعون نزولاً ، إلى أن ينزل النص الكريم بتفصيل حاسم في سورة النور ، وهي السورة الثانية بعد المائة ، فيقول سبحانه : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع .. ﴾ (٤٥) [النور] . وليس وراء ذلك شكل من أشكال الحياة فيما يدب على الأرض ، وإن تنوعت الأشكال فيما لا يدب على الأرض .

وعَوْدٌ إلى سورة الفرقان - الحادية والأربعين نزولاً - والتي ذكر فيها (الماء) أصلاً للبشر - لنجد أن السورة التالية لها مباشرة في التنزيل ، وهي الثانية والأربعون (سورة فاطر) - تذكر (التراب) ، وهو الطرف الثاني للمعادلة الطينية . فيقول سبحانه : ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر

ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير (١١) ﴾ [فاطر] ، وهى آية تتضمن الكثير من اختصاصات القدرة الإلهية ، ففيها - إلى جانب (التراب) و (النطفة) - إشارة إلى الزوجية ﴿ ثم جعلكم أزواجا ﴾ . وكأنها تفسير بوجه آخر لعبارة السورة السابقة (الفرقان) التى ذكرت ﴿ فجعله نسبا وصهرا ﴾ .. أى : فى شكل أزواج تتكامل فيما بينها(١) .

ثم تكتمل معادلة الطين بردها إلى الأرض ، باعتبارها منبت الخلق ، وذلك فى سورة (طه) (الرابعة والأربعين) ، فيقول سبحانه ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى (٥٥) ﴾ [طه] . كما قال فى السورة السبعين (نوح) : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتا (١٧) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا (١٨) ﴾ [نوح]

ويتكرر ذكر التراب بعد سورة (فاطر) فى سورة الكهف (الثامنة والستين نزولاً) ، فى قوله تعالى : ﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا (٣٧) ﴾ [الكهف] . وهكذا يقدم القرآن الحقيقة إجمالاً ، ثم يفصلها تدريجيا على مسار الوحى .

ويتعرض القرآن فى سورة الحجر ، وهى السورة الثالثة والخمسون نزولاً ، وذلك فى الآية الثامنة والعشرين - يتعرض لبعض أوصاف الطين: المادة البشرية ، وهى قوله تعالى :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمإ

(١) لا مراء أن هذا ما توصل إليه العلم أخيرا فى مجال استنساخ الحيوان ، وهو ما فوجئ به العالم فى قضية النعجة (دوللى) ، فإن إشارة القرآن إلى إنتاج الإنسان عن طريق الزوجية تعبير عن الطريق الرسمى لعبور الأناس إلى مجال الحياة الأرضية ، وهو لا ينفى وجود طرق أخرى يحاول العلم معرفتها .

مسنون (٢٨) ﴾ [الحجر] - لقد زادت هذه الآية المادة وضوحاً حين ذكرت أن الطين كان فى شكل (صلصال من حمإ مسنون) . و (الصلصال) هو الطين اليابس ، أو هو الطين الحر خلط بالرمل ، فصار يتصلصل إذا جف ، فإذا طبخ بالنار فهو الفخار ، وآية سورة الرحمن (السادسة والتسعين نزولاً) : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار (١٤) ﴾ [الرحمن] .. تنفى عن الصلصال أن يكون طبخ بالنار ، وإن شبهته بالفخار فى جفافه ، والحمأ : هو الطين الأسود ، والمسنون هو المبتل المنتن ، وقد زاد من صفات هذا الطين فى سورة الصافات (الخامسة والخمسين) فذكر أنه ﴿ طين لازب (١١) ﴾ [الصافات] ، بمعنى : متلاصق أملس متماسك .

وسواء - فى الحقيقة - أن يستخدم القرآن فى تعبيره عن أصل البشر: الأرض أو التراب ، أو الطين ، أو الصلصال ، أو الحمأ المسنون ، فكل ذلك لا يختلف ، لأن المكونات واحدة تماماً ، فى التراب وأشكاله السابقة ، وفى الجسد البشرى أو المادة الحية .

يقول الأستاذ البهى الخولى : (لو أنك أخذت قبضة من تراب الأرض الخصبة ، وأجريت عليها عمليات التحليل الكيماوى لوجدتها تتركب من ستة عشر عنصراً . ولو أخذت قطعة من جسم الإنسان وأجريت عليها عمليات هذا التحليل لوجدتها كذلك تتركب من ستة عشر عنصراً - هى نفس العناصر التى تتركب منها تربة الأرض ، وهذه العناصر هى ما يأتى .

١ - الأكسجين = ٦٣,٠٣٪   ٢ - الكربون = ٢٠,٢٠٪

٣ - الأيدروجين = ٩,٩٠٪   ٤ - النيتروجين = ٢,٥٠٪

٥ - الكالسيوم = ٢,٤٥٪	٦ - الفسفور = ١,٠١٪
٧ - الكلور = ٠,١٦٪	٨ - الفلور = ٠,١٤٪
٩ - الكبريت = ٠,١٤٪	١٠ - البوتاسيوم = ٠,١١٪
١١ - الصوديوم = ٠,١٠٪	١٢ - المغنيسيوم = ٠,٠٧٪
١٣ - الحديد = ٠,٠١٪	

اليود + السليكون + المنجنيز = آثار ضئيلة(١)

وقد تبين من جمع النسب المختلفة أن الآثار الضئيلة من (اليود ، والسليكون ، والمنجنيز) لا تتجاوز ٠,١٨٪ للمواد الثلاث . وقد أضافت قوائم أخرى مواد أرضية دخلت فى تكوين الإنسان ، وهى النحاس ، والكوبالت ، والتوتيا ، والموليديوم ، والألومنيوم ، والسيلنيوم ، والكادميوم، والكروم ، وبذلك تصل العناصر الترابية فى الإنسان إلى أربعة وعشرين عنصراً .

فخلق البشر كان من معدن الأرض ، كما قال سبحانه وتعالى فى السورة الثانية والعشرين نزولاً - أى فى الوحى المكى المبكر - ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم] ، أى : من معدن الأرض ، وهو الصلصال المتخذ من الطين الأسود المنتن - هكذا شاءت إرادة الله ، ولا يستطيع أحد أن ينكر هذه الحقيقة ، أو ان يكذب بها ، مع أن هناك فى مرأى العين مسافة هائلة بين الطين واللحم البشرى .. الطين مادة خامدة ، واللحم البشرى نسيج حى متنام ،

(١) أنظر آدم عليه السلام للبهى الخولى ص ١٥ وما بعدها

وهى مسافة لم يقطعها العقل الإنسانى حتى الآن ، ولن يقطعها فى المستقبل ، بمعنى أن العقل لن يكشف عن سر التحول الذى جعل التراب لحماً حياً ومتنامياً ، ومن ثَمَّ لن يكون بوسع الإنسان - مهما تقدم فى دراساته عن الخلية الحية ، وعن الهندسة الوراثية - أن يحول التراب إلى خلايا حية ، فالمسافة بينهما برزخ يستحيل عبوره على قدرات الإنسان ، لأنهما فى الواقع تعبير عن إمكانات قدرة الله المتفردة بالخلق والإبداع ، بالإحياء والإفناء .

هذا عن المسافة بين التراب والمادة الحية ، فأما عن المسافة بين التراب والمخلوق البشرى فيقول الأستاذ سيد قطب ، وهو يعلق على قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ ﴾ [الطارق] . (فالمسافة الهائلة بين المنشأ والمصير ، بين الماء الدافق الذى يخرج من بين الصلب والترائب ، وبين الإنسان المدرك العاقل، المعقد التركيب العضوى ، والعصبى ، والعقلى ، والنفسى .. هذه المسافة الهائلة التى يعبرها الماء الدافق إلى الإنسان الناطق .. توحى بأن هناك يداً خارج ذات الإنسان ، هى التى تدفع بهذا الشىء المائع الذى لا قوام له ، ولا إرادة ، ولا قدرة فى طريق الرحلة الطويلة العجيبة الهائلة ، حتى تنتهى به إلى هذه النهاية الماثلة ، وتشى بأن هناك حافظاً من أمر الله يرعى هذه النطفة المجردة من الشكل والعقل ، ومن الإرادة والقدرة ، فى رحلتها الطويلة العجيبة ، وهى تحوى من العجائب أضعاف ما يعرض للإنسان من العجائب ، من مولده إلى مماته)(١) .

(١) فى ظلال القرآن - سورة الطارق

ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى أن الماء قد يقصد به ما يخلط بالتراب ليصير طيناً ، وقد يقصد به الماء المهين الذي يبدو في ظاهره لا علاقة له بالطين ، وإن كان في الحقيقة حافلاً بموجودات ترابية ـ طينية ، متمثلة في الكائنات الحية التي تعتبر : (كبسولة الحياة) ، ويتحدث العلم عن مئات الملايين من هذه الكائنات الحية في منيّ الرجل .. في الدفقة الواحدة تندفع في رحم المرأة ، في نهاية الاتصال الجنسي .. وكل هذا صادر عن التراب ، وعائد إلى التراب .

ثانياً : الخلق النفسي

وتبقى بعد ذلك آيتان تحدثتا عن خلق الإنسان من نفس واحدة ، وهما: آية الأعراف ، وهي السورة الثامنة والثلاثون نزولاً .. قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)﴾ [الأعراف] .

وآية النساء ، وهي السورة الثالثة والتسعون نزولاً .. قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً .. (١)﴾ [النساء] .

والآيتان تقرران وحدة الأصل الإنساني ، إذ المخاطب ههنا هو الناس ، كما هو نص الآية الثانية ، وكما هو مفهوم الآية الأولى ، لأن الخطاب في القرآن لم يوجه مطلقاً إلى البشر .. بل إلى الإنسان ، وبدهي أن نعرف أننا جميعاً منتمون لآدم ، كما قال رسول الله ﷺ : (كلكم لآدم) ، أي : لآدم وحواء ، باعتبارهما المصدر الوحيد الذي تناسلت منه كل الذراري الإنسانية .

غير أن خلق زوج آدم من نفسه مشكل ، فهل حواء من ضلع آدم كما وردت بذلك آثار ؟ أو أن حواء خلقت خلقاً مستقلاً ، كما هو شأن آدم ؟

الاحتمال الأخير هو الراجح في نظرنا لأمرين :

أولهما : أن كثيراً من العلماء اعتبروا مسألة الضلع مجرد
المرأة وفطرتها .

ثانيهما : أن خلق حواء من نفس آدم مؤول على أنها من نوعه وجنسه، وقد جاء ذلك بالنسبة إلى كل زوج في قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها .. (٢١) ﴾ [الروم]

ومن المؤكد أن المقصود بآية الأعراف ليس آدم وزوجه ، لأن الآيات بعدها تتحدث عن أن الزوجين جعلا لله شركاء فيما آتاهما من الذرية ، ولم يكن هذا من آدم وزوجه .

وتبقى آية النساء معبرة عن الأصل النفسي الذي انبثقت منه كل النفوس ، وعلى الرغم من اختلاف الأقوال في حقيقة هذه النفس ، فإننا نميل إلى أنها هي سر الله في الإنسان ، وبها صار إنساناً ، دونما سواه ، فالخلق فيما انتهى إليه تأملنا في هذه المسألة يتم على مستويين :

خلق مادي من تراب ، وهو الخلق البشري الظاهر .

وخلق نفسي من روح الله ، وهو الخلق الباطن ، ونحن على يقين من أنه لولا تلك النفخة الإلهية لما كان ذلك المخلوق سوى دابة من دواب الأرض .

فلماذا أغرق العلماء أنفسهم في البحث عن ماهية النفس ، دون أن يصلوا فيها إلى شيء ، مع أن الحقيقة واضحة بين أيديهم ، وهي في غاية الوضوح بقدر ما هي في منتهى الغموض ؟!!!

إنها غيب من غيب الله ، وسر من أسراره ، وهذا هو الوضوح الذي نقصده ، كالكهرباء لا تعرف حقيقتها إلا بآثارها ، والعقل والروح والنفس قوى أودعها الله كيان هذا الإنسان ـ لا تدرك حقائقها ـ وإن استدل على وجودها بآثارها ، ومن آثارها أن تنبثق منها زوج الرجل التي يسكن إليها .

الفصل السابع

البشر والإنسان

إذا كان القرآن قد ذكر خلق (البشر) في أربع آيات ، فقد ذكر خلق (الإنسان) في خمس وثلاثين آية ، هي على ترتيب النزول موزعة بين المكي والمدني . فالآيات المكية هي :

١ – في السورة الأولى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق (١) خلق الإنسان من علق (٢) ﴾ [العلق] .

٢ – وفي السورة السابعة : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى (١) الذي خلق فسوى (٢) ﴾ [الأعلى] .

٣ – وفي السورة السابعة والعشرين : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (٤) ثم رددناه أسفل سافلين (٥) ﴾ [التين] .

٤ – وفي السورة الثلاثين : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى (٣٦) ألم يك نطفة من مني يمنى (٣٧) ثم كان علقة فخلق فسوى (٣٨) فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى (٣٩) ﴾ [القيامة] .

٥ – وفي السورة الثانية والثلاثين : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين (٢٠) فجعلناه في قرار مكين (٢١) إلى قدر معلوم (٢٢) فقدرنا فنعم القادرون (٢٣) ﴾ [المرسلات].

٦ – وفي السورة الثالثة والثلاثين : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما

توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (١٦) ﴾ [ق] .

٧ – وفى السورة الخامسة والثلاثين : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق (٥) خلق من ماء دافق (٦) يخرج من بين الصلب والترائب (٧) ﴾ [الطارق] .

٨ – وفى السورة الثامنة والثلاثين : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس .. (١١) ﴾ [الأعراف] .

٩ – وفى السورة الأربعين : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين (٧٧) وضرب لنا مثلا ونسى خلقه .. (٧٨) ﴾ [يس] .

١٠ – وفى السورة الثانية والأربعين : ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه .. (١١) ﴾ [فاطر]

١١ – وفى السورة الثالثة والأربعين : ﴿ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا (٦٧) ﴾ [مريم] .

١٢ – وفى السورة الرابعة والأربعين : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى (٥٥) ﴾ [طه] .

١٣ – وفى نفس السورة : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما (١١٥) ﴾ [طه] .

١٤ – وفى السورة الخامسة والأربعين : ﴿ أفرأيتم ما تمنون (٥٨) أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون (٥٩) ﴾ [الواقعة] .

١٥ – وفى السورة التاسعة والأربعين : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا

لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا (٦١) ﴾ [الإسراء] .

١٦ – وفى السورة الثالثة والخمسين : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون (٢٦) ﴾ [الحجر] .

١٧ – وفى السورة الرابعة والخمسين : ﴿ هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون (٢) ﴾ [الأنعام] .

١٨ – وفى السورة الخامسة والخمسين : ﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب (١١) ﴾ [الصافات] .

١٩ – وفى السورة التاسعة والخمسين : ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم .. (٦٧) ﴾ [غافر] .

٢٠ – وفى السورة الثامنة والستين : ﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا (٣٧) ﴾ [الكهف] .

٢١ – وفى السورة التاسعة والستين : ﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين (٤) ﴾ [النحل] .

٢٢ – وفى السورة السبعين : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا (١٣) وقد خلقكم أطوارا (١٤) ﴾ [نوح] .

٢٣ – وفى نفس السورة : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتا (١٧) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا (١٨) ﴾ [نوح] .

٢٤ – وفى السورة الثالثة والسبعين : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة

مِن طين (١٢) ثُمَّ جعلناه نطفة في قرار مكين (١٣) ثم خلقنا النطفة علقة. (١٤) ﴾ [المؤمنون] .

٢٥ - وفي السورة الرابعة والسبعين : ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين (٧) ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين (٨) ثم سواه ونفخ فيه من روحه .. (٩) ﴾ [السجدة] .

٢٦ - وفي السورة الحادية والثمانين : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم (٦) الذي خلقك فسواك فعدلك (٧) في أي صورة ما شاء ركبك (٨) ﴾ [الانفطار] .

٢٧ - وفي السورة الثالثة والثمانين : ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم .. (٤٠) ﴾ [الروم] .

٢٨ - وفي نفس السورة : ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة .. (٥٤) ﴾ [الروم] .

والآيات المدنية هي :

٢٩ - وفي السورة السابعة والثمانين : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة .. (٣٠) ﴾ [البقرة] .

٣٠ - وفي السورة الثالثة والتسعين : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء .. (١) ﴾ [النساء] .

٣١ - وفي السورة الثامنة والتسعين : ﴿ خلق الإنسان (٣) علمه البيان (٤) ﴾ [الرحمن] .

٣٢ - وفي نفس السورة : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار (١٤) ﴾ [الرحمن] .

٣٣ - وفي السورة التاسعة والتسعين : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا (١) إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا (٢) ﴾ [الإنسان] .

٣٤ - وفي السورة الخامسة بعد المائة : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة .. (٥) ﴾ [الحج] .

٣٥ - وفي السورة الثامنة بعد المائة : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا .. (١٣) ﴾ [الحجرات] .

ويلاحظ في نصوص هذه الآيات أن (خلق الإنسان) جاء بلفظه في ستة عشر موضعا ، وأن بقية المواضع - وهي تسعة عشر موضعا - يدل السياق فيها على أن المراد بها هو (الإنسان) ، وليس (البشر) ، حيث اكتفى النص بالإشارة دون العبارة ، أو جاء الخطاب للناس لا للإنسان ، أو كان النص على آدم ، وهو - فيما نرى - أول إنسان ، وكل ذلك جاء في سور : (الأعلى ، والمرسلات ، والأعراف ، وفاطر ، وطه - في موضعين - وفي الإسراء ، والأنعام ، والصافات ، وغافر ، والكهف ، ونوح - في موضعين - والروم ، والبقرة ، والحج ، والحجرات ، وانفردت الواقعة بدعوة الناس إلى التأمل فيما يفرزون من مني) .

ولسوف يتضح لنا فيما بعد - أن المراد في هذه المواضع هو (الإنسان)، وليس البشر ، والآيات الست عشرة تتحدث عن (خلق الإنسان) تارة من علق ، وأخرى من نطفة ، أو من (نطفة أمشاج) ، وثالثة (من طين)، أو

(من سلالة من طين) ، أو (من صلصال من حمأ مسنون) ، أو (من صلصال كالفخار)[1] .

وتأتي آية سورة الحج (السورة الخامسة بعد المائة) فتخاطب الناس نصاً وصراحة ، فتقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ .. ﴾ إلى آخر الآية وهي تجمع إشارتين إلى الأصل الأول ، وهو التراب ، وإلى الأصل البديل ، وهو النطفة .

و (الناس) : اسم جمع لبني آدم ، واحده (إنسان) من غير لفظه .

القرآن المكي

فإذا تابعنا بناء الصورة التي تأتي لبناتها في الآيات الملكية المتتابعة وجدنا الحديث عن البداية المرئية للإنسان ، وهي (العلق) في السورة الأولى ، ثم تأتي إضافة في السورة السابعة ، تشير إلى ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ ، ثم تأتي لمحة عن المستوى الأخلاقي - في السورة السابعة والعشرين ، فهو قد خُلِقَ أولاً ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ، ثم ارتد إلى ﴿ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ ثم استثنى من هؤلاء السفلة جماعة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، وهي رسالة موجهة إلى معارضي الدعوة والمكذبين بالدين من كفار قريش .

ويعود الوحي إلى بيان آليات الخلق في السورة الثلاثين (القيامة) : منيّ يفرز نطفة تتحول إلى علقة تحمل عناصر الذكورة والأنوثة ، بحسب تقدير الله وتحديده للنوع ، وتشير السورة الثانية والثلاثون (المرسلات)

(١) هو صلصال . وليس فخاراً ، لأن الفخار هو الطين المحروق ، وكأن التشبيه يحتفظ فى [illegible] بفرق فى الدلالة .

إلى نفس المعنى ، لكنها تذكر المكان الذي تتم فيه عملية الخلق ، وهو (القرار المكين) أو (الرحم) .

ثم يأتي الحديث في السورة التالية مباشرة ، وهي الثالثة والثلاثون (ق) ليؤكد حضور الله سبحانه وتعالى في وجود هذا الإنسان ، وهو ملمح تربوي ، يستطرد بعده الوحي في السورة الخامسة والثلاثين (الطارق) ليقرر أن هذا الخلق العظيم ، (خلق الإنسان) ﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝ ﴾ [الطارق] ، والصلب : فقار الظهر ، وهي منبع الماء الدافق عند الرجل ، والترائب : جمع .. مفرده تريبة، وهي عظام الصدر مما يلي الترقوتين ، وهي منبع ماء المرأة ، وهذه المعلومة كانت مجهولة للإنسان ، وبقيت مجهولة حتى منتصف القرن العشرين ، وقد تضمنها الوحي القرآني منذ أوائل هذا الوحي ، أي : منذ أكثر من أربعة عشر قرناً .

ثم تأتي السورة الثامنة والثلاثون (الأعراف) لتتحدث عن الخَلْق والتصوير : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ ، وهما مرحلتان في عمر البشرية ، لعلهما استغرقتا بضعة ملايين من السنين ، والتصوير هنا يقابل التسوية في مواضع أخرى ، ومع ملاحظة استعمال الأداة (ثم) التي تفيد التراخي بين الأمرين ، وهو ما سنفرد له معالجة أخرى .

وتنزل في السورة الأربعين (يس) إشارة إلى ما يسبق العلق ، وهو (النطفة) مرة أخرى ، ولكن يقرن ذلك بالعجب من أن لا يعرف هذا المخلوق قدره في مواجهة خالقه .. ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ﴾ [يس] .

ويواصل الوحي تعريف الإنسان بأصله في السورة الثانية والأربعين (فاطر) فيجمع لأول مرة بين التراب والنطفة ، ويضيف آية من آياته ، وهي خلق الزوج ليأتلف مع زوجه ، وهو يتابع بعلمه ما يتم بين الأزواج، وما يترتب عليه من حمل ووضع ، كما يتابع الأعمار - طويلة وقصيرة .

ثم يساعف التنزيل ذلك الإنسان فيخاطب عقله وذاكرته في السورة الثالثة والأربعين (مريم) ويسأله عن مرحلة ما قبل وجوده . إن كان لديه شيء يذكره غير العدم : ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ . فالآية ترد الإنسان إلى ما سبقه من عدم ، وهو أنصع برهان على أنه مُحْدَثٌ بيد القدرة ، وهي إشارة تشبه إلى حد كبير ما استهلت به سورة (الإنسان) - التاسعة والتسعون (المدنية) .

ويلي (مريم) في ترتيب النزول (طه) وهي السورة الرابعة والأربعون، وذلك في قوله تعالى : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ ، وكأنها تدل الإنسان الباحث عن مبدأ خلقه إلى نقطة البداية التي ليس وراءها شيء يذكره مهما حاول .

فإذا نظر الإنسان إلى الأرض - ومنها خلقه الأول - أدركه سؤال السورة الخامسة والأربعين (الواقعة) ليقرب إليه صورة من الحقيقة . ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ ؟؟

فإذا نظر إلى الأرض ليبحث عن أصله فليعلم أن جزءاً من هذه الأرض قفز إلى صلب أبيه ، وترائب أمه ، فلقحت - فيهما - الأرضُ الأرضَ ، فكان ذلك المخلوق الباحث عن الحقيقة ، يحسبها بعيدة ، وهي بين يديه ، وفي إهابه : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ [الذاريات] .

الإنسان يخرج من البشر

وهنا يأتي النص الكريم في السورة الثالثة والخمسين (الحجر) ليرد الإنسان إلى أصل (البشر) : ﴿ صلصال من حمأ مسنون ﴾ . ولما كان السياق في السورة يذكر (الإنسان) في مقابل (الجان) في آيتي الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧)﴾ [الحجر] فإن الحديث عن الأصل الترابي يرتبط غالباً (بالبشر) . ولذلك يعود النص إلى الأصل فيقول : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)﴾ [الحجر]

والربط بين (الإنسان) و (الصلصال) سياق تتولى تفسيره الآيات التالية التي تحدد المراد بالإنسان ، وهو (البشر) .

وينبغي أن نلاحظ أسلوب القرآن في سَوْق الحقيقة هنا ؛ فهو يذكر (الإنسان) هكذا معرفاً ، باعتباره الموضوع الأساسي المقصود بالذكر ، والمخاطب بالآيات ، وهو في مقابل (الجان) المشارك للإنسان في التكليف والمسئولية على هذه الأرض .

فإذا شرع في بيان حقيقة الخلق منذ البداية : ذكر أن هذه البداية كانت في صورة (بشر) .. هكذا مُنَكَّراً .. باعتباره النموذج الذي أجريت عليه عمليات التسوية ، والتصوير ، والنفخ من روح الله (أو التزويد بالملكات العليا التي كان بها البشر إنساناً - وهي العقل ، واللغة ، والدين) .

فقبل التسوية لم يكن المخلوق البشري إنساناً .. بل كان بداية خلق إنسان في حيز القوة ، قبل أن يكون إنساناً في حيز الفعل .

لم يكن أحد من الجن أو من الملائكة يعلم شيئاً عن سر ذلك المخلوق البشرى ، أو عما سيؤول إليه أمره ، فذلك كله كان غيباً فى علم الله وحده، وهو من اختصاص قدرته التى تابعت تنفيذ المخطط ، وتحقيق التسويات المطلوبة عبر الأجيال ، كما زودته تلك القدرة العظمى بعوامل التألق حتى صار البشر القشيم (إنساناً) صالحاً للتكليف ، وحمل الأمانة الإلهية .

وكل ذلك الفرق الهائل بين البشر والإنسان يشى به الاستعمال القرآنى، وهو فرق ما بين التعريف والتنكير فى هاتين الآيتين من سورة الحجر .

ويرد هذا المعنى إجمالاً للتذكير فى سورة (الأنعام) التى جاءت بعد الحجر مباشرة وهى الرابعة والخمسون : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ .. فهو (طين لازب) ، كما فى السورة التالية مباشرة (الصافات) ، غير أن بقية آية الأنعام تتحدث كما رأينا عن (أجلين) فى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ ، وقد كان تحديد المقصود بالأجلين موضع اجتهاد المفسرين ، فحصروه فى ثلاثة احتمالات :

فإما أن يكون الأجل الأول أجل الموت ، والآخر : القيامة ..

وإما أن يكون الأول ما بين أن يخلق إلى أن يموت ، والثانى ما بين الموت إلى البعث (وهو البرزخ) ..

وقيل الأول : النوم ، والثانى : الموت ، (الكشاف [illegible]) .

وذكر تفسير المنار (٧/٢٤٨) أن الأجل الثانى هو أجل حياة مجموع

الناس الذى ينقضى بقيام الساعة ، وقيل : الأجل الخاص بكل فرد ، والأجل العام وهو عمر الدنيا .

ونحسب أن هناك احتمالاً غاب عن هذه التقديرات ، وهو أن الأجل الأول (النكرة) هو أجل الحياة البشرية السابقة على العهد الإنسانى ، وأما الأجل المسمى : فهو أجل كل فرد من المكلفين ، فالأول مجمل يندمج فيه الكل فى واحد ، والثانى مفصل لكل فرد ، لتعلقه بالمسئولية والحساب والمصير ، ولا مانع فى نظرنا من إرادة ذلك فى الآية .

ثم تأتى السورة التاسعة والخمسون (غافر) فتربط لأول مرة بين التراب والنطفة والعلقة : ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ ، وهنا يذكر المرحلتين : مرحلة الخلق من تراب ، ومرحلة الخلق من نطفة ، وهما مرحلتان منفصلتان فى الظاهر ، وقد ربط القرآن بينهما بحرف التراخى (ثم) للتعبير عن المسافة الزمنية بينهما .

ويلاحظ أن هذا الموضوع لم يرد له ذكر فى القرآن بعد سورة غافر ، إلا بعد عشر سور .. أى : حتى نزلت سورة (النحل) بإشارتها المقتضبة: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ، وهى السورة التاسعة والستون ، ثم تنزل السورة الحادية والسبعون ، سورة (نوح) وفيها إشارة ذات دلالة تاريخية ومادية معاً ، هى قوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح] ، فمن الناحية التاريخية : قد يراد بالأطوار المراحل الزمنية المتطاولة التى مر بها خلق البشر ، وتقلبهم فى أطوار التسوية والتصوير والنفخة من روح الله : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ ، ومن الناحية المادية : قد يراد بالأطوار ما جاء

بعد ذلك مباشرة من حديث القرآن عن الجنين وأطواره في (القرار المكين) وهو رحم الأم ، فحديث سورة (المؤمنون) هو بمثابة الإجابة عن سؤال تَجَمَّ عن ذكر الأطوار في سورة نوح .. ما هي هذه الأطوار ؟؟.. فجاء الرد في السورة الرابعة والسبعين (المؤمنون) ، وذلك قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ ، وكأن الآية تدفع عن العقل احتمال إدماج العمليتين في عملية واحدة ، فالإنسان خلق من (سلالة) نسلت (من طين) ، أي : إنه لم يخلق مباشرة من الطين ، فأما ابن الطين مباشرة فهو (أول البشر) ، وكان ذلك منذ ملايين السنين .

وهذا المعنى هو الذي عبرت عنه السورة الخامسة والسبعون (السجدة) وهي إضافة مهمة للرد على السؤال المثار عن المقصود بـ (الأطوار) في السورة الحادية والسبعين .. يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ .. (٩)﴾ [السجدة] .

فخلق الإنسان (بدأ من طين) ، أي : عند البداية البشرية ، ثم استخرج الله منه نسلاً ﴿مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ ، ثم كانت التسوية ونفخ الروح ، فكان (الإنسان) هو الثمرة في نهاية المطاف .. عبر تلكم الأطوار التاريخية السحيقة العتيقة .

وحسبنا أن نلاحظ هنا ما يشير إلى بعض مراحل التسوية في قوله تعالى في نص سورة السجدة : ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. (٩)﴾ [السجدة] . فقد تم هذا الجَعْلُ خلال مراحل التسوية ، وهو ما يفترض أن (البشر) كان في المراحل الأولى بلا سمع ولا بصر ولا فؤاد (عقل) ، تماماً كما هو حال المولود ، حين يخرج

من بطن أمه .. لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل .. لانعدام الحاجة إلى هذه الأدوات في المرحلة الأولى من الوجود ، فكل ما يحتاجه الوليد هو أن تكون له شفتان ، يمتص بهما غذاءه من ثدي أمه ، وبعد فترة ـ وبالتدريج ـ يبدأ في استخدام عينيه وأذنيه وعقله في التعامل مع ما حوله من عناصر الحياة ، وهو قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. (٧٨)﴾ [النحل] .

لقد خلق الله البشر أطفالاً أو كالأطفال .. بلا أسماع ولا أبصار ولا عقول ، ثم جعل لهم هذه الأدوات في مراحل التسوية المتطاولة ، حين شاءت القدرة أن تزود هذا المخلوق البشري بما يحتاج إليه من أدوات الكمال .

بيد أن الحديث في السورة الرابعة والسبعين (المؤمنون) لم يقتصر على الإشارة التاريخية السابقة .. بل قدم وصفاً ومتابعة لأطوار تكوين الجنين ، وهو إضافة لم تسبق في أي سياق مكي ، فقال سبحانه : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون] .

لقد مر النص الكريم بالمراحل المختلفة التي تبدأ بالنطفة ، وتنتهي بالإنسان ، في هذا الإيجاز المحكم الذي يتضمن حقائق الأطوار في ذلك القرار المكين .. رحم المرأة ، وهكذا عبّر البشر كل الأطوار ، فصار خلقاً آخر : (إنساناً) ، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ .

وقد نلاحظ هنا أن نص (السجدة) يتلاقى مع هذا النص ، مع فارق

الإجمال والتفصيل ، ومع انفراد (المؤمنون) بمراحل التكوين الجنيني ، وانفراد (السجدة) بمراحل التكوين الطيني .

ويبقى من الوحي المكي ما ورد في السورة الثانية والثمانين (الانفطار) من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) ﴾ [الانفطار] .

وأيضا ما ورد في السورة الرابعة والثمانين (الروم) من قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾ [الروم] ، وهما تنزيلان وردا في مقام التذكير بقدرة الله ، وهيمنته على الإنسان ، ومشيئته المطلقة.. ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (يخلق ما يشاء) ، وتنفرد الآية الأولى بمفهوم قوله : ﴿ فعدلك ﴾ ، وهو معنى خاص باختيار الصورة التي يظهر بها الإنسان على الأرض ، بين سائر الناس ذوي الصور المختلفة أيضاً ، ولكل مخلوق صورته المتميزة عن سائر الصور ، وتنفرد الآية الثانية بذكر الضعف والقوة ، وضابطهما من المشيئة الإلهية ، فلا ضعف إلا بمشيئته ، ولا قوة إلا باختياره وإرادته ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾.

وبذلك ينتهي الحديث المكي عن خلق الإنسان .

القرآن المدني

ثم تأتي المرحلة المدنية ، وتبدأ بالسورة السابعة والثمانين (البقرة) ، فتذكر مرحلة أخرى من مراحل الملحمة الخالدة ، دون أن تذكر (البشر أو الإنسان) .. بل هي تركز على (آدم) الذي يهيأ لوظيفة (الخلافة) (البقرة: ٣٠ وما بعدها) وهو من أجل ذلك يعلم من اللغة ما لم تعلمه

الملائكة ، وسيأتي في ذلك حديث .

وفي السورة الثامنة والتسعين (الرحمن) إشارتان ..

أولاهما : إلى علاقة الإنسان باللغة في مستواها البياني : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾ [الرحمن] .

وثانيهما : مزيد من التعريف بالصلصال الذي ذكر في السورة المكية (الحجر) على أنه : ﴿ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ ، فتصفه بأنه ﴿ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ ، وذلك في مقابل أن الجان خلقوا ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ ، كما سبق أن قابل (الحمأ المسنون) بـ (نار السموم) في سورة الحجر أيضاً ، وللتكرار هنا فائدة هي مزيد من التعريف بطبيعة المادة التي هي أصل الخلق ، وهي (الطين اللازب) كما جاء في الصافات .

وتبقى في المرحلة المدنية إشارة سورة (الإنسان) ، وهي السورة التاسعة والتسعون ، وقد جاءت في قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) ﴾ [الإنسان] .

وهو كما نرى نص يضيف وصفاً تحليلياً للنطفة ، فالأمشاج تطلق على الخلايا الذكرية ، كالحيوان المنوي ، وتطلق على الخلايا الأنثوية ، كالبييضة أو البويضة ، قبل أن تندمجا لتكوين اللاقحة (وهي البويضة الملقحة) التي تكون الجنين[1] ، والإنسان خليط من هذه الخلايا ، أو الأمشاج ، وهي حقيقة لم تذكر من قبل في أي سياق ، إلا ما جاء إشارة عامة عن

(١) المعجم الوسيط ـ مشج .

(الماء المهين) ، و (الماء الدافق) من الصلب والترائب .

وأخيراً تأتي السورة الخامسة بعد المائة : (الحج) - لتقدم التقرير النهائي عن قصة الخلق في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج (٥) ﴾ [الحج] .

وهي آية تتضمن تفاصيل مهمة ، وبخاصة فيما يتعلق بالمضغة ، فليست كل مضغة تتحول جنيناً .. بل قد تكون مخلقة ، وقد تكون غير مخلقة ، وكذلك فيما يتعلق بحياة الإنسان : طفلاً ، فبالغاً ، وقد يحين موته أجلئذ ، وقد تمتد به الحياة إلى أرذل العمر ، وهي حقائق سبق الإيماء إليها في سورة (غافر : ٦١) ، ولكنها جاءت هنا في خاتمة التقرير عن إمكان البعث ، ودفع الريب فيه من العقول والقلوب ، وتلكم هي الغاية التي سيقت من أجلها كل هذه النصوص عن (خلق البشر - الإنسان) :

﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير (٦) وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور (٧) ﴾ [الحج] .

وأخيراً ، يختم الوحي حديثه بخطاب عام موجه إلى (الإنسانية) جمعاء، من كل الألوان ، والأجناس ، والأصقاع ، تحقيقاً لعموم الرسالة ، وتأكيداً لمبدأ المساواة المطلقة بين جميع الناس ، وإعلاناً للقاعدة الإلهية

التي سيتم على أساسها محاسبة الخلائق .. يوم الموقف العظيم .. جاء ذلك في سورة الحجرات ، وهي السورة الثامنة بعد المائة ، في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير (١٣) ﴾ [الحجرات] .

إن هذا البيان الإلهي نداء إلى جميع (الناس) يذكرهم بوحدة الأصل ، نهم جميعاً قد نسلوا من ذكر وأنثى ، هما آدم وزوجه حواء ، باعتبارهما أول من تألقت فيه صفات (الإنسان) من سلالات البشر ، ولا التفات إلى ما سبقهما من السلالات والأجيال ، فهما في الواقع المنبع الذي تدفقت منه جماعات (الناس) على هذه الأرض ، من بني آدم .. أي : من ظهره ، وقد جعلهم الله شعوباً وقبائل ، فهم أصل واحد ، ووجود متنوع ، وعليهم - وقد أدركوا هذه الحقيقة - أن يتعارفوا بحكم ما بينهم من قرابة ، فلا فضل لأحد منهم على غيره من شركائه في الأصل بأي اعتبار مادي ، وإنما يتفاضلون عند الله بالتزامهم لأوامره ، واجتنابهم لمحارمه ، وطاعتهم المطلقة له . **وبعبارة أوضح** : بألا يأكلوا من الشجرة التي حرمها عليهم ؛ شجرة المعصية التي حرّمت على أبويهم في الجنة ، وهي محرمة عليهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

الفصل الثامن

الطريق إلى الجنة

ملاحظات على العلاقة بين البشر والإنسان :

حقيقة لا ريب لدينا فيها : هى أن بين (البشر والإنسان) عموماً وخصوصاً مطلقاً ، فـ (البشر) لفظ عام فى كل مخلوق ظهر على سطح الأرض ، يسير على قدمين ، منتصب القامة ، و (الإنسان) لفظ خاص بكل من كان من البشر مكلفاً بمعرفة الله وعبادته ، فكل إنسان بشر ، وليس كل بشر إنساناً . والمقصود هو طبعاً المعنى الأول الذى استعملت فيه الكلمة (بشر) فى آيات القرآن ، وهو الظاهر أو المتحرك مع حسن وجمال .

وقد جاءت فى القرآن كلمة أعمّ من : البشر والإنسان ، وهى كلمة (الأنام) ، وتعنى كل مخلوق على ظهر الأرض ، عاقلاً أو غير عاقل ، وإن كان المفسرون يرون أن الكلمة تعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) ﴾ [الرحمن] : الجن والإنس ، وهما الثقلان المخاطبان ، كما هو وارد فى هذه السورة المدنية .

وجاء أيضاً فى سورة (البينة) ، وهى سورة مدنية ، وهى السورة الحادية بعد المائة نزولاً - إطلاق لفظة (البرية) على (الخلق) ، والجمع برايا ، قال الله سبحانه وتعالى فى وصف الكافرين والمشركين :

﴿أولئك هم شر البرية ⑥﴾ [البينة] ، وقال فى وصف المؤمنين :

﴿أولئك هم خير البرية ⑦﴾ [البينة] .

ونستطيع أن نقرر مع علماء الإنسان (الأنثروبولوجيين) أن الأرض عرفت هذا الخلق الذى ظهر على سطحها منذ ملايين السنين ، تختلف فى تقديرات العلم باختلاف عمر الأحافير ، ونتائج التحليلات العلمية . وقد أطلق العلماء على هذا المخلوق خطأ أو تجاوزاً لقب : (إنسان) ، فقالوا : إنسان بكين ، أو إنسان جاوة ، أو إنسان كينيا ، أو ما سوى ذلك من الإطلاقات التى تعنى مراحل تكوين (البشر) بإطلاق القرآن ، واستخدام كلمة (إنسان) فى وصف هؤلاء ليس إلا على سبيل التوسع ، كما استخدمت كلمة (بشر) للدلالة على معنى (الإنسان) توسعاً أيضاً ، وإلا فاللفظ الدقيق بلغة القرآن ، والذى ينبغى أن يستخدم فى تسمية تلك المخلوقات العتيقة التى تدل عليها الأحافير - هو (البشر) ، فواجب أن يقال : بشر بكين ، وبشر جاوة ، وبشر كينيا ، وبشر النياندارتال .. الخ .

أما (الإنسان) فلا يطلق بمفهوم القرآن إلا على ذلك المخلوق المكلف بالتوحيد والعبادة لا غير ، وهو الذى يبدأ بوجود آدم عليه السلام ، وآدم - على هذا - هو (أبو الإنسان) ، وليس (أبو البشر) ، ولا علاقة بين آدم والبشر الذين بادوا قبله ، تمهيداً لظهور ذلك النسل الآدمى الجديد ، اللهم إلا تلك العلاقة العامة أو التذكارية ، باعتباره من نسلهم .

ولأمر ما وجدنا أن القرآن لا يخاطب البشر .. بل يخاطب الإنسان ، والتكليف الدينى منوط بصفة (الإنسانية) ، لا بصفة (البشرية) ، فلم يعد للبشر القديم وجود منذ ظهر آدم عليه السلام ، وتناسلت ذريته ، وورثت الأرض وما عليها .

ولأمر ما أيضاً وجدنا أن كلمة (البشر) جامدة لا تتصرف ، اللهم إلا بالتثنية والجمع فى قليل الاستعمال ، على حين أن كلمة (إنسان) متصرفة مرنة ، وردت فى القرآن بصور مختلفة ، وهى مفرد ، جمعه : أناسين ، وأناسى ، وقد استعمل مصغراً فقيل : أنيسيان ، والإنس : اسم جماعة الناس ، والجمع أناس ، والواحد : إنسى .

والناس : اسم جمع من النوس ، وهو الحركة .. واحده : إنسان من غير لفظه ، ويقال للمرأة إنسان ، ولا يقال : إنسانة ، وإن شاعت على ألسنة العامة . وكل ذلك أكسب الكلمة مرونة فى الاستعمال .

وليس يبعد أن نفترض أن الخالق سبحانه - وقد مضت مشيئته بتفرد آدم وذريته بالسيادة على الأرض ، والنهوض بأمر الدين ، وإقامة التكاليف ، وفى مقدمتها التوحيد - قدَّرَ سُبْحانه فناءَ كل البشر ، من غير ولد آدم ، وذلك بعد عزل السلالة الجديدة المنتقاة فى الجنة ، حتى تتم إبادة جماعات الهمج البشرية ، لتبدأ بعد ذلك الملحمة الإنسانية ، بطليعتها المصطفاة : آدم وحواء ، وبدأ التكليف داخل الجنة ، وبدأ الصراع بعد أن أخليت ساحته من العناصر الطفيلية التى لم يعد لها دور .. بل التى انتهى دورها ، ليبدأ على الأرض دور جديد .. لكن ! كيف بدأ هذا الدور ؟.. أو كيف استهل ذلكم العهد ؟

ذلك ما لا سبيل إلى تصويره إلا من خلال الكلمات المجردة ، ولا دور أيضاً للخيال فى رسم صورته إلا من خلال الإيمان المطلق بعالم الغ
فذلكم مشهد غيبى تم قبل الزمان الإنسانى بزمان إلهى ، حين
بأن يكون الكون .. فكان .. كأن كل ما كان ، وكل ما يكون ا

طول الزمان . وبعد أن ينتهي هذا الزمان ، فيبدأ للوجود تقويم زمني آخر ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ .

حينذاك أمر الله سبحانه كل الذراري التي قدر أن تخرج من صلب آدم ، وأصلاب بنيه ـ أمرها أن تخرج على ساحة الغيب ، وأن تمثل بين يديه . كانت آنذاك مجرد ذرات لا يحصيها ولا يحصرها حد ، إلا علم الله وحده.. ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ .. (١٤) ﴾ [الملك] و ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾ [مريم] .

وأسرعت الذرات بالمثول أمام الجلال الإلهي ، فألقى الله ـ سبحانه ـ على المشهد الهائل سؤالاً واحداً هو الذي من أجله كانت الدعوة إلى الحضور :

قال الله : ألست بربكم ؟

وتلقوا السؤال ووعوه فقالوا جميعاً في صوت واحد : بلى .. شهدنا .

وقال الله مبيناً الحكمة من هذا الحشد : ﴿ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف] .

إن النص القرآني يروي حكاية هذا المشهد الكوني الرهيب ، وهو يطلب من النبي ﷺ وسلم أن يذكر المؤمنين به ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف] .

ولا ريب أن سجل كل آدمي ، أو كتابه الذي سيقدم إليه يوم القيامة ـ سوف يكون مستهلاً بصورة من هذا المشهد .. تبين موقعه بين من حضروا هذا اللقاء ، وتثبت وجوده ، وشهادته على نفسه بالإقرار

بعبوديته لله : إلهاً ، ورباً ، وحاكماً ، وستكون هذه الصورة هي المرجع الأول أو المستند الرئيسي في محاكمة كل آدمي يوم القيامة : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء] .

هكذا بدأ العهد الآدمي في ملحمة الخليقة ، وهكذا كان الدين وتكاليفه نقطة البداية في رحلة الإنسان نحو الموعد ، موعد اللقاء مع الله .. تسير يسير بين جدارين متوازيين ، جدار المسئولية الجماعية في الدنيا .. وجدار المسئولية الفردية في الآخرة .. وبهذا اختلف الإنسان عن البشر .

إن الدين يتضمن تكاليف تخص (الإنسان) باعتباره فرداً ، كما تخص (الناس) باعتبارهم مجتمعاً ، وليس هذا التفريق بين الفرد والمجتمع بوارد في استعمال كلمة (البشر) ، ففي إطار (البشرية) لا تفريق بين المستويات أو الأسماء ، إذا افترضنا أن البشر عرفوا شيئاً اسمه (اللغة) ، وهو أمر غير بعيد ، لأنهم كانوا مجتمعاً حيوانياً ، كل فرد فيه ككل فرد ، وكل فرد بمثابة أية جماعة ، لا اعتبار للفروق الفردية .

لقد كان (البشر) خلال الأحقاب والعهود المتطاولة مجرد مخلوقات متحركة ، حيوانية السلوك ، ولكنها تزداد في كل مرحلة تعديلاً في سلوكها ، ونضجا في خبرتها ، وتلوناً في طرائق التفاهم اللغوي فيما بينها ، وربما كان هذا هو المقصود بسؤال الملائكة للرب ـ جل وعلا ـ ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾[البقرة] .. [illegible] هو الواقع المشاهد ، فتعجبت الملائكة من استخلاف هذه المتوحشين !!

وطبيعي أن ندرك كذلك أن الزمن في هذا الحال [illegible]

المدة كالسَّنَة ، وألف سنة ، أو حتى مليون سنة ـ كيوم واحد ، لا معنى لبدايته أو نهايته ، ولا وظيفة له وقد عدم موضوعه ، ومن المعروف أن بعض الكائنات التى عاشت فى الكهوف المظلمة فقدت قدرتها على الإبصار، إذ كانت الحياة بالنسبة إليها ظلاماً فى ظلام .

وقد عشنا فى حياتنا تجربة تقرب إلينا هذا المعنى ، حين ساقتنا الظروف التعيسة إلى محبس (زنزانة) فى الاعتقال السياسى (عام ١٩٥٥) .. كانت زنزانة مظلمة .. لم نكن ندرى فيها مرور الأيام ، ولا حدود الشهور ، فقد تساوى الليل والنهار ، وضاعت المعالم والآثار .

وبين أيدينا شواهد قرآنية على صواب ما نذهب إليه : ذلك أن قصة الخلق التى جاءت فى سورة (ص) تعطينا الإشارة الأولى إلى الدليل على تمادى العهود التى عاشتها البشرية فى ظلام الزمن السحيق ، أو فى زنزانة ذلك الزمن .. يقول الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) ﴾ [ص] ، وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا (البشر) هو (آدم) عليه السلام ، وأن الله سبحانه وتعالى كلّف بعض ملائكته أن يجمعوا له من تراب الأرض ، من جميع أخلاطه وألوانه ، كما ذكرت الروايات الواردة فى الطبرى ، نقلاً عن الإسرائيليات ، ونقل عنه من جاء بعده ، وأن الله خلق هذا البشر ، وسواه ، ونفخ فيه من روحه ، فكان آدم الذى أسجدت له الملائكة .

والواقع الذى عبّرت عنه الآيتان ـ فى نظرنا ـ هو أن الله سبحانه خلق (أو أراد خلْقَ) البشر من الطين ، وأخبر ملائكته بهذا الخبر ، أو الإرادة

العلوية : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا ﴾ ، وهذه هى المرحلة الأولى فى بداية الخلق الإلهى . وكلمة (البشر) هنا لا تعنى فرداً واحداً ، بل هى ـ بحسب الأصل ـ تطلق على أكثر من واحد ، لدلالتها على الجنس ، وقد حدد القرآن الصورة الأولى لخلق الكائنات بأنها خلقت أزواجاً ، فقال سبحانه : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) ﴾ [النبأ] ، وذلك انطلاقاً من الأرض : ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ﴾ [نوح] ، فمن الأرض كان انطلاق الحياة فى شكل أزواج متنوعات : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) ﴾ [الذاريات] ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٣) ﴾ [الرعد] .

البرهان اللغوى

وتأتى بعد ذلك مرحلتان فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ وهى آية مصدرة بأداة ظرفية زمانية هى (إذا) ، وهى ظرف لما يستقبل من الزمان ، ويمكن أن يكون هذا الزمان لحظة ، كما يمكن أن يكون دهراً طويلاً . والقدرة التى تنجز هذا الخلق هى القدرة التى تقول للشىء (كن فيكون) ، أى : القدرة الكُنِّيَّة التى لا يحكمها الزمان ولا المكان .. بل هى التى خلقت الزمان والمكان ، ونحسب أن استخدام (إذا) فى هذا السياق لا يبعد عن أن يراد به ملايين السنين بحساب الزمن الدنيوى ، وإن كانت هذه الملايين لا تعدو أن تكون أياماً معدودة فى حساب الزمن الإلهى ، كما أنها مرت مجرد كتلة فى ظلام دائم ، لم تلمع خلاله أشعة العقل ، ولا أضواء المعرفة .

وقد استخدمت (إذا) فى القرآن للدلالة على المستقبل القريب والمستقبل البعيد سواءً ، فقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ

﴾ (٤٨) [المرسلات] لا تزيد فيه مساحة (إذا) الزمنية على لحظة ينطق فيها الأمر (اركعوا) ، ولكن قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ .. (٢٤)﴾ [يونس] تمتد فيه المساحة إلى زمان غير معلوم ، وكذلك في الآيات :

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١)﴾ [التكوير] ، و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١)﴾ [الانفطار] ، و ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣)﴾ [الحاقة] .. تتراحب في هذه الآيات مساحة الظرف إلى ما شاء الله ، وهو استخدام قرآني مستقبلي .. تحسب أبعاده بالسنين المعروفة لنا ، فأما إذا عبرت عن المستقبل في داخل الماضي السحيق فتلكم هي المشكلة التي يستحيل حسابها ، ومن هذا القبيل تأتي (إذا) في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ ظرفاً زمنياً تعبيراً عن إرادة أزلية تمضي في تحققها عبر ملايين السنين ، تسوى ذلك المخلوق ، وهو جنس (البشر) ، ثم تزوده بنفخة الله الروحية ليكون عندئذ (الإنسان) الذي تسجد له الملائكة ، الإنسان الذي يدخل بوابة الزمان ، ويبدأ حضوره وحضارته .

ومعنى ذلك أن خلق الإنسان تم عبر ثلاث مراحل هائلة ، هي (الخلق ، والتسوية ، والنفخ) ، ومن السذاجة أن نفسر هذا النفخ بأنه بث الروح في الجسد ، فقد حدث ذلك في مرحلة (الخلق) الأولى ، التي أحالت التراب أو الطين إلى مخلوق ظاهر (بشر) يتحرك على الأرض بالروح الحيواني ، كما تتحرك سائر الكائنات من حشر ، وطير وحيوان . ثم تناولت القدرة ذلك المخلوق في المرحلة الثانية (بالتسوية) أو ما يمكن تشبيهه بهندسة البناء وتجميله ، وهي مرحلة التعديل المادي أو الظاهري ، وقد استغرقت ملايين السنين ، والله أعلم بتفاصيلها ، ثم جاءت المرحلة الثالثة للهندسة الداخلية ، وهي المتمثلة في تزويد المخلوق السوي

بالملكات والقدرات العليا ، التي جوهرها (العقل) ، والحياة الاجتماعية ثمرة العقل ، واللغة وسيلة الاتصال بين أفراد المجتمع من العقلاء ، وبذلك اكتمل بناء (الإنسان) . فكان (آدم) هو أول (إنسان) ، وطليعة سلالة التكليف بتوحيد الله وعبادته .

ومما يستدل به على هذه المراحل وتكاملها استعمال القرآن لأداة التراخي (ثم) في ربط أجزاء الجملة في سورة السجدة ، مثلاً في قوله تعالى : ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ .. (٩)﴾ [السجدة] ، والأداة (ثم) للترتيب مع التراخي ، وكأن استعمالها في هذا السياق ترجمة لمفهوم الزمان المتطاول الذي عبر عنه الظرف (إذا) ، في مقابل استخدام الفاء أو الواو في ربط أجزاء أخرى من الآيات ، تعبيراً عن التعقيب أو مطلق الجمع[1] .

بل إن هذا التراخي يتجلى في سورة (المؤمنون) في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ .. (١٤)﴾ [المؤمنون] ، ولنتأمل استعمال (ثم) في الآيات ، بجانب استعمال (الفاء) ، فبين (الخلق) من الطين و (الجَعْل) ﴿ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ ـ مسافة زمنية ، لا يعلمها إلا الله ، استغرقتها عمليات التسوية ، وهذا (الجَعْل) تعبير عن جانب استكمال (الخلق) ، ثم تكون النطفة علقة ، ولعل تقدير ذلك تم في زمان متطاول أيضاً .

(١) التعقيب تعبير عن تتابع الأحداث ، بعضها في إثر بعض دون فاصل طويل من الزمن ، وهو وظيفة (الفاء) العاطفة أصلاً ، ومطلق الجمع هو وظيفة (الواو) فهي لا تفيد ترتيباً ولا تعقيباً .

١١١

وتذكر الآية بعد ذلك عمليات تخليق الجنين ، وهي عمليات متتابعة لا يفصل بينها سوى أشهر أو أيام معدودات .. زمن قصير نسبياً .. بين العلقة والمضغة ، وبين المضغة والعظام ، وبين العظام واللحم ، وذلك كله معطوف بالفاء ، ويعود السياق بعد ذلك إلى استخدام (ثم) للتعبير عن طول الفترة الزمنية بين ما سبق ، وما سوف يأتي بعد : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ، والمعنى التاريخي لإنشاء هذا الخلق هو النقلة من البشر إلى الإنسان ، وهو خلق آخر فعلاً ، إلى جانب احتمال أن يكون المراد هو المولود الجديد .

ويمضي السياق ملتزماً نفس الإيقاع البطيء - ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16) ﴾ [المؤمنون] ، لقد عبرت (ثم) في الآيتين الأخيرتين عن زمن طويل ، هو في الآية الأولى (عمر الإنسان) الذي يعينه حتى الموت ، الذي يضع نهاية للحياة المقدورة لذلك الكائن ، وهو في الآية الثانية مدة ما بيننا وبين القيامة والبعث .

ولنقرأ أخيراً آية الأعراف ، قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ .. (11) ﴾ [الأعراف] . وهي آية تعبر عن مرحلتين هما : (الخلق والتصوير) ، وبينهما فيما نتصور آماد طائلة ، تعبر عنها الأداة (ثم) ، ويعطف القرآن خطاب الله سبحانه للملائكة باستخدام (ثم) ، وهو في رأينا تعبير عن أن الأمر بالسجود لم يكن بعد مرحلة التصوير مباشرة ، وهو ما يعني مرحلة التسوية بل جاءت قبله مرحلة (النفخ من روح الله) ، وقد أومأ إليها استخدام (ثم) في صدر الجملة ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ ، دون أن يصرح بها ، لأنه لا سجود إلا لمن زود بروح الله .

وبرغم ذلك قد يعبر النص القرآني عما شأنه التراخي - بالفاء ، فيز

يضمنها معنى (ثم) ، أو بتعبير أدق : يوظفها في موقع (ثم) ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (8) ﴾ [الانفطار] ، وقد يسوغ هذا التضمين أن المخاطب - وهو الإنسان - لا يرى في ذاته سوى مخلوق مكتمل ، خلقاً وتسوية ، وعدلاً ، فهو يرى اندماج هذه المراحل في ذاته ، ولذلك لاق أن يضمن (الفاء) معنى (ثم) المتراخية .

وقد تفسر هذه المراحل في سورة الانفطار على أنها خاصة بأحوال الجنين في بطن أمه ، كما يقول الإمام القرطبي : (خَلَقَكَ .. أي : قدر خَلْقَكَ من نطفة ، فسواك : في بطن أمك ، وجعل لك يدين ورجلين وعينين وسائر أعضائك ، فعدلك .. أي : جعلك معتدلاً سوى الخلق .. وقرأ الكوفيون : عاصم وحمزة والكسائي : فَعَدَلَكَ .. مخففاً ، أي : أمالك وصرفك إلى أي صورة شاء ، إما حسناً وإما قبيحاً ، وإما طويلاً وإما قصيراً) .

ولسنا مع هذا التوجيه ، مع أنه يحل مشكلة التراخي مع الفاء ، لأن الأسلوب القرآني درج على استخدام كلمات الخلق والتسوية والنفخ - خاصة بأحوال البشر منذ وجدوا ، إلى أن صار البشر سوياً .. أي : إنساناً اصطفاه الله ، وناط به تحقيق رسالة العبودية لله رب العالمين .

ترى ! كم من الأجيال البشرية لزم لعمليتي التسوية ، والنفخ ، حتى كان آدم ذلك الإنسان الكامل الناطق ؟!

لا نبالغ إذا قلنا : إن ذلك اقتضى مئات الألوف من الأجيال ، وقد سجل كل جيل بصمته المتميزة ، على طريق الاكتمال ، ولا سيما في مجال العقل، واللسان ، والجمال .

الفصل التاسع

برهان التكرار

الإنسان مرة أخرى

وضح لنا مما سبق أن (الإنسان) هو المقصود من التكليف الديني ، وأن (البشر) وهم طلائع الخليقة ، لا مكان لهم في عالمنا ، لأنهم بادوا ، ودرست آثارهم ، فلم تبق منهم سوى أحاديث وأحافير تدل على أنهم كانوا موجودين ، منذ عصور جيولوجية متقادمة ، فلما قضت إرادة الله بإيجاد هذا الخلق الإنساني ـ قدر خلق آدم ، وهو مستوى خاص جداً من (البشر) ، مزود بأدوات كاملة من العقل واللغة والعاطفة ، وملكات الإدراك والضمير ، والإرادة ، والاستعدادات الفطرية والغريزية ، المتفرقة بين الخير والشر ، وكل ذلك ثمرة من ثمرات النفخة الإلهية التي أتم الله بها خلقه ، وهيأه ليعيش في ضوء المعايير الدينية التي أرسل بها الأنبياء ، منذ آدم إلى محمد عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام ، وذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(٣٣)﴾ [آل عمران]

ومقتضى ذلك أن النوع البشرى قد انقرض ليحل محله رتبة أرقى هي رتبة (الإنسان) باعتباره الطور المحسن من أطوار البشر ، والجيل المختار للمسيرة الجديدة على طريق التوحيد ومعرفة الله ، ثم أطلق على

المراد هذه الرتبة : بنو آدم .

ولقد نجد في القرآن دليلاً قاطعاً على صحة هذا المذهب ، حين نجده محتفياً بالإنسان متابعاً لوصف كل أحواله ، في ثلاثة وثلاثين موضعاً ، على حين أنه لم يذكر (البشر) بوصف واحد ، وهو سلوك واضح الدلالة على صدق التفرقة بين المستويين . ولننظر الآن إلى نصوص القرآن الواردة بشأن الإنسان ، بحسب ورودها في ترتيب المصحف :

قال تعالى :

١ – ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) ﴾ [النساء] .

٢ – ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) ﴾ [يونس] .

٣ – ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) ﴾ [هود] .

٤ – ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) ﴾ [يوسف] .

٥ – ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم] .

٦ – ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) ﴾ [النحل] .

٧ – ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾ [الإسراء] .

٨ – ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧) ﴾ [الإسراء] .

٩ – ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) ﴾ [الإسراء] .

١٠ – ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا (١٠٠) ﴾ [الإسراء] .

١١ – ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤) ﴾ [الكهف] .

١٢ – ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ .. (٣٧) ﴾ [الأنبياء] .

١٣ – ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) ﴾ [الحج] .

١٤ – ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً (٢٩) ﴾ [الفرقان] .

١٥ – ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب] .

١٦ – ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) ﴾ [يس] .

١٧ – ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ .. (٨) ﴾ [الزمر] .

١٨ – ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ .. (٤٩) ﴾ [الزمر] .

١٩ – ﴿ لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) ﴾ [فصلت] .

٢٠ – ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) ﴾ [فصلت] .

٢١ – ﴿ إِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨) ﴾ [الشورى] .

٢٢ – ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ [الزخرف] .

٢٣ – ﴿إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وإذا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)﴾ [المعارج]

٢٤ – ﴿بَلِ الإنسانُ على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤)﴾ [القيامة]

٢٥ – ﴿أَيَحْسَبُ الإنسانُ أن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦)﴾ [القيامة]

٢٦ – ﴿قُتِلَ الإنسانُ ما أَكْفَرَهُ (١٧)﴾ [عبس].

٢٧ – ﴿يا أيُّها الإنسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ (٦)﴾ [الانفطار]

٢٨ – ﴿يا أيُّها الإنسانُ إنَّكَ كادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ (٦)﴾ [الانشقاق]

٢٩ – ﴿لَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ في كَبَدٍ (٤)﴾ [البلد].

٣٠ – ﴿لَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ (٥) إلا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ .. (٦)﴾ [التين].

٣١ – ﴿كَلا إنَّ الإنسانَ لَيَطْغَى (٦) أن رَآهُ اسْتَغْنَى (٧)﴾ [العلق].

٣٢ – ﴿إنَّ الإنسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وإنَّهُ على ذلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وإنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨)﴾ [العاديات]

٣٣ – ﴿والعَصْرِ (١) إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إلا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ وتَواصَوْا بِالحَقِّ وتَواصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

هذه هي المواضع التي ذكر فيها (الإنسان) في القرآن بصفات مختلفة بين الخير والشر والقوة والضعف ، والإيمان والكفر ، والحكمة والحمق ، والعلم والجهل ، والطهر والدنس ، والعرفان والجحود ، وأخيراً فهو مستهدف دائماً لعداوة الشيطان .. هذا كله عن الإنسان .

على حين أن القرآن لم يذكر البشر بشيء من هذا أو غيره ، مع أن

كلمة (البشر) وردت في القرآن مفردة ثلاثين مرة ، ثم ذكرت مثناة مرة واحدة ، أما (الإنسان) فقد ورد لفظه في القرآن اثنتين وستين مرة، بالإضافة إلى ورود لفظة (الإنس) سبع عشرة مرة ، وجاءت لفظة (أناس) سبع مرات ، ولفظة (الناس) مائتين وأربعاً وثلاثين مرة ، ولفظة (أناسي) مرة واحدة ، فمجموع ورود لفظ الإنسان وأمثاله ثلثمائة وإحدى وعشرين مرة .

فإذا علمنا أن (الناس) قد خوطبوا في القرآن بلقب (بني آدم) ، وأن ذلك قد جاء سبع مرات في القرآن ؛ إذا علمنا ذلك كله ؛ تأكد لدينا أن (الإنسان) هو المرحلة الأخيرة والحاسمة في تاريخ الحياة على الأرض ، وأن وجود (البشر) إنما كان بمثابة المراحل التحضيرية لذلكم المخلوق الذي قضى على الأرض ملايين السنين بين عوامل التسوية ، وتحصيل خواص الجمال ، والكمال ، بروح من الله الذي قدر له أن يكون سيد الكون، حتى صار جديراً بأن يحمل أمانة الله على هذه الأرض ، ويتفرد بذلك من دون السموات والأرض والجبال جميعاً ، فكان قوله تعالى بشأنه : ﴿إنّا عَرَضْنا الأمانَةَ على السَّماواتِ والأرْضِ والجِبالِ فَأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها وأَشْفَقْنَ مِنْها وحَمَلَها الإنسانُ إنَّهُ كانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)﴾ [الأحزاب] .

لقد خفيت هذه التفرقة على أجيال العلماء من قبل ، سواء في ذلك القدماء والمحدثون ، بعد أن طغى طوفان الإسرائيليات ، وأصبحت المصدر الوحيد للحديث عن العالم القديم ، والخلق ، حتى تصور العلمانيون وأحلاسهم وأشباههم أن الدين مناقض للعلم في هذه القضية الخطيرة ، وأن الدين لا يملك سوى بعض القصص الأسطوري ، وبعض التصورات الخرافية ، وأن الدين بذلك يقف أمام حائط مسدود ، يجب تجاوزه للحاق بركب العلم والتقدم .

وها نحن أولاء نجد الدين فى نصوصه الحقة (القرآن) يسبق العلم سبقاً بعيداً ، ويحدد هوية الحياة على الأرض تحديداً لا يتصادم مع العقل والرؤية العلمية اللاحقة .. بل إنه يتوافق مع الحقائق العلمية ، ويدعو إلى الاعتماد عليها فى فهم قضية (بدء الخليقة) ، كما سبق أن قرأنا ذلك فى آية سورة العنكبوت : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ .. (٢٠) ﴾ [العنكبوت] ، وبذلك يكون العلم بياناً لنصوص القرآن ، فيما توصل إليه من حقائق ، كما أنه فى طريقه إلى موافقة القرآن فى كل ما قرر من نظريات تحتاج إلى مزيد من البحث والتحقيق .

آدم أبو الإنسان

هل آن الأوان لنجيب عن السؤال الذى طرحناه من قبل ، وهو : هل كان وجود هذه الخليقة البشرية شيئاً واحداً فى الأرض .. أرادته القدرة الإلهية، وتابعته فى مراحله المتطاولة ، وسارت به حتى انتهى إلى آدم عليه السلام ؟.. أم كان وجود الخليقة فى صورة مجموعة من الأشكال المتنوعة أو المتقاطرة على الساحة الأرضية عبر الوجود الزمنى الهائل ، وكان آدم أحد هذه الأشياء .

إننا نبادر إلى نفى الشق الثانى من السؤال نفياً قاطعاً لأسباب تفرض نفسها : أن البشرية تعنى فى المفهوم الدينى القرآنى جنساً واحداً ، لا عدة أجناس مقتبس بعضها من بعض على ما قررته النظرية الداروينية .. التى أسقطها العلماء فى الشرق والغرب على السواء .

وقد تميزت هذه الخليقة بصفات ثابتة فى كل المراحل .. مشتركة بين أفرادها وأجيالها .. مختلفة عما عرفت به أجناس الخلائق الأخرى من

خصائص ومميزات وصفات ، وهو ما يعنيه قول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ .. (٤٥) ﴾ [النور] ، والعلم يؤكد صدق هذه الآية بتقريره أن البشر منذ وجدوا كانوا يسيرون منتصبى القامة ، بعكس الأجناس الأخرى، والاختلاف فى هذه الخاصية يعنى تعدد أجناس الخلق ، وهو الحقيقة المقررة حتى الآن فيما نشاهد من أصناف الخلق ، ما دقَّ منها وما جلَّ .

ثم إن الله سبحانه وتعالى أخبر الملائكة أزلاً أنه ﴿خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾، وأن هذا البشر سوف يتعرض للتسوية والتعديل فى أطوار نضجه ، حتى يكتمل ، وحينئذ يتعين على الملائكة أن تسجد له ، فلو تعددت الأنواع الخلقية لما تقررت حكمة الخالق فى أمره بالسجود لهذا المخلوق بالذات ، دون غيره من أجناس الخلق الأخرى ، فهو متعين منذ كان طيناً ، لم يخف أمره على ملائكة الرحمن ، وهى تتابع ما يطرأ عليه من تغير وتنام عبر الدهور ، حتى أصبح بشراً سوياً .. أى : إنساناً متكاملاً ، هو آدم عليه السلام ﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ .. (٧٤) ﴾ [ص] .

إن منطوق القرآن ومفهومه يؤكدان وحدة الخلق البشرى الذى بدأ بأول بشر خلق من طين ، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. (٩) ﴾ [السجدة] ، ولا مانع فى نظرنا من أن نتصور البشر الأول بلا وظيفة سمع ولا بصر ، ولا فؤاد ، ثم كان ذلك فى مراحل مختلفة على طريق استكمال مقومات هذا الخلق البشرى . ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾[١]

(١) يجب أن نلاحظ الفرق بين الخلق وهو الإيجاد من عدم ، والجعل وهو تمكين الحاسة من أداء وظيفتها .

وقد سبقت الإشارة إلى مغزى هذه المرحلة ، واللغة من أخطر مقومات هذا الخلق ، ويبدو أنها بلغت درجة من الكمال في المرحلة الآدمية الحاسمة ، حتى تفوق آدم على الملائكة في أول اختبار .

لقد كانت ملحمة هائلة !! تلك التي استغرقها خلق البشر وتسويته وتزويده بالملكات العليا التي أصبح بها (إنسانا) تتألق فيه كمالات النبوة، فاختاره الله واصطفاه كما قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ .. (٣٣)﴾ [آل عمران] ، فصار آدم نبياً ، كما قال سبحانه : ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)﴾ [طه] .

لقد استغرقت هذه الملحمة ـ كما سبق أن قلنا ملايين السنين ، ولكنها مرت ظلاماً في ظلام ، أو : غيباً في غيب ، حتى أذن الله للصبح أن ينبلج ـ فأشرق الإنسان من سلالة البشر ، واكتمل الخلق ، وجاء آدم !!

ليس غريباً أن نتصور ـ بناء على هذا ـ أن آدم جاء مولوداً لأبوين[1] ، وأن حواء جاءت كذلك ، على الرغم مما سوف يلقى هذا التصور من معارضة تلقائية ، ورفض عنيف !! وبلا تفكير !!

إن هذا التصور لا يتصادم في رأينا مع حقيقة خلق الإنسان من طين ، ذلك أن الخلق الذي بدأ منذ ملايين السنين بالجسد الطيني ـ كان هدفه النهائي والوحيد خلق (آدم) ، وكل ما مضى من أحداث بين التاريخين ـ إن كان ثمة تاريخ ـ إنما هو وقائع بناء جسد آدم ، وعقله ، وروحه ،

(١) ذكر الشيخ رشيد رضا أن وثنيي الهند يزعمون أن لآدم أماً ، ولها في مدينتهم المقدسة (بنارس) قبر عليه قبة بجانب قبة قبره (المنار ٨/٣٠٨) .

وملكاته . وخصائصه ، وقد تم ذلك كله في غيبوبة الزمان ، حيث استوى الصفر والمليون . فما هي إلا سِنَةٌ استمرت بضعة ملايين من السنين حتى استوى الإنسان .. (آدم) الذي نبت في التراب ، وانبثق من الأرض ، لقد تبددت الأحداث والوقائع ، ولم يبق منها سوى الحقيقة الترابية .

وهو تصور ليس غريبا ، ولا بعيداً عن الواقع الذي قرره القرآن ـ مثلاً ـ عن الآخرة حين قال تعالى : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)﴾ [النازعات] .. أي : إن الزمان يكون قد انطوى ، وسقطت في جُبِّه كل الأحداث مهما تعاظمت ، واستغرقت مئات السنين ، وهو كذلك ما كرره القرآن في قوله تعالى : ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤)﴾ [المؤمنون] .

وبهذا تكون الحقيقة الترابية أثبت الحقائق وأبرزها في وجود كل مخلوق يدخل في مضمون الضمائر (أنا ـ ونحن ـ وأنت ـ وأنت ـ وأنتما ـ وأنتم ـ وأنتن ـ وهو ـ وهي ـ وهما ـ وهم ـ وهن) ، وخبرها جميعاً (من تراب) : ﴿صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ .

الباب الثانى

وقائع القصة

الفصل الأول

البشر واللغة

كانت اللغة هي معجزة الخلق التي أثمرها تزويد المخلوق البشرى بالملكات العليا ، وفي قمتها : العقل ... وإذا كان البشر قد عاشوا ملايين السنين حتى تتم عملية التسوية ، والنفخ الإلهى - فإن من أخطر مظاهر الكمال الخلْقى أن يدرك الأفراد معنى العلاقات المتبادلة فيما بينهم ، وهى علاقات لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال اللغة ، ونحن نستخدم (اللغة) هنا بالمفهوم العام الذى يشمل الجاذبية الجنسية ، وهى أقدم لغة وصلت ما بين طرفى النوع البشرى من أول لحظة ، كما يشمل التدافع والاحتكاك المادى ، والإشارة والصوت المبهم .. إلخ ، وعلى طريق النضج البشرى بدأت الجوارح تصل ما بين الفرد والفرد ، وما بين الذكر والأنثى ، ونحسب أن صوت الجنس كان أقدم الأصوات التى صدرت عن البشر أو صرخوا بها .

كما بدأت وظائف الجوارح تتحدد في سلوكيات مادية ، قابلة للترقى والتطور والتنويع ، وما أشبه البشر آنذاك - والزمان طفل لم يتجاوز بضعة ملايين من السنين - بأطفالنا الآن في أيامهم الأولى ، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

ومن المسلم به علمياً أن وجود البشر كان مسبوقاً بوجود الكائنات الأخرى من الطير والحيوان فى البر والبحر ، وكانت هذه تشكل عالماً من الكائنات بأشكالها وأنواعها ، كما كان لها تأثير مباشر على الوجود البشرى ، فمنها كان قوت البشر ووسائل عملهم .. بل تولى بعض الطيور مهمة تعليم هذا المخلوق ما هو بحاجة إليه من سلوكيات ، ودور الغراب فى قصة ابنى آدم ذو دلالة ظاهرة فى هذا المجال : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ .. (٣١) ﴾ [المائدة] ، أى : أن الإنسان فى مطلع فجره لم يكن يدفن جثث الموتى من جنسه ، حتى شاهد - وهو فى قمة مأساته - الغراب يلقنه درس الدفن ، بعدما بلغ سن الرشد ، ودخل فى المرحلة الآدمية الجديدة ، ولا يبعد أن نتصور أن البشر كانوا فى بداية وجودهم ، وقبل رشدهم يتآكلون ويتفارسون .. أى : يأكل بعضهم بعضاً .

ولو أننا تصورنا حياة الصدام ، والصراع بين البشر وسائر أجناس الخلق - فإن ذلك يعنى أن العلاقات بين الموجودات والبشر كانت هى القوت اليومى ، بوجهيها : السلبى والإيجابى .

وقد كانت هذه العلاقات تتنامى دائماً ، كماً وكيفاً .. وهى تحدث بصماتها ، وتحفر فى العقل البشرى آثارها ، وكان البشر قد ميزوا بالفكر ، أى ، بالعقل ، وهو ما يعنى أنهم كانوا قادرين على الاحتفاظ بالتجربة فى ذاكرتهم ، ثم صاروا يفيدون من رصيد التجارب المتراكمة ، فى حركة ، وفى صوت .

لقد كانت للطير أو الحيوان طريقته التى لا تتغير فى التعامل مع جنسه وغير جنسه ، ولكنه يأتى من ذلك ما يوصف بالتلقائية الأبدية ، والثبات الغرزى المتواصل عبر ملايين السنين ، وإن حدث تغير أحياناً فى الشكل ، أما رصيد التجارب البشرية فقد كان فى نمو دائم ، وتغير مستمر ، رغبة فى تحسين الأداء ، وتمكين الجنس البشرى من السيطرة على سائر الأجناس ، ومن هنا كان التوجه إلى استخدام الأدوات الحجرية لمضاعفة القدرة ، وتأمين السيطرة .. هذا فى جانب الحركة .

فأما فى جانب الصوت فقد كان أغزر مادةً ، وأكثر حدوثاً إذ كانت الضوضاء - وما زالت - هى غذاء الحياة وقوتها ، ودليلها ، سواء صدرت الضوضاء عن البشر ، أم صدرت عن المادة المتعلقة بالحركة ، وليس بوسع مخلوق أن يأتى بحركة إلا مقترنة بصوت ، ينبعث من أثر احتكاك المادة بعضها ببعض ، أو يصدر عن الإنسان ، وهو يتعامل معها ، ثم يتحول الصوت إلى مقطع ، ثم إلى كلمة ، ثم إلى درجات من التركيب المتنوع ، ثم تتطور هذه الحالة التى اقترن فيها الصوت بالحركة ، ليصدر الصوت مستقلاً عن الحركة ، وقد يكون فى هذا الحال مجرد صوت ، وقد يرتبط بهدف حيوى ، أو تعبير عاطفى ، وهكذا نشأت اللغة البشرية ، مع التجاوز البالغ عن تفاصيل كثيرة .. كثيرة جداً تتعلق بأوعية الزمان والمكان ، واحتمالات الفعل والترك ، والإيجاب والسلب ، والعطاء والمنع ، والذكاء والغباء ، والتناقض والاستواء .. الخ .

ولا شك أن البشر كانوا محوطين بأصوات أخرى تصدر عن الطيور والحيوانات ، ولهم من دون الخلائق جميعاً قدرة على تقليد الأصوات ، ونادر من الطيور ما عرف بتقليد الأصوات (الببغاء) ، أما الإنسان فقد لذ له دائماً التخاطب مع تلك الكائنات ، أو التجاوب معها من باب التسلية أو الترويض ، وقد لاحظ أولئك البشر أن لكل كائن نوعاً من الضوضاء

يستخدمه في قيادة القطيع ، أو نداء الأنثى ، أو تحذير الصغار ، أو مواجهة الأخطار ، فلم لا يكونون كذلك ، وهم يملكون قدرة هائلة على التنويع وهم ـ كذلك ـ يعقلون المعنى الوظيفي للصوت حين ينطلق بوجه من الوجوه ، ولم لا يكون تعاملهم مع هذه الكائنات من قناة اللغة ، بحيث يضعون لها أسماء تميزها عند التعامل معها .

هكذا تخلقت اللغة خلال ملايين السنين ، حتى صارت مكونة من أصوات متشخصة ، وكلمات متخصصة ، وحتى أصبحت تضم الألوف من الكلمات .. بل حتى تنوعت فبلغت عدة اللغات أكثر من ألفي لغة ينطقها الإنسان الآن ، وكلها مبنية على عدد محدد من الأصوات هو غاية ما يصدره جهاز النطق ، لا يزيد ولا يتنوع .

لقد أولع كثيرون بالبحث عن أصل اللغة ، فمن قائل : إنها من وحي الله .. نزّله على بعض عباده من الأنبياء ، كآدم ، وإسماعيل !! وللجاحظ هنا مقولة : إن الله فتق لهاة إسماعيل بالعربية على غير مثال سبق (مختارات فصول الجاحظ مخطوط بدار الكتب) .

وقائل إنها مواضعة حددت لكل شيء اسمه المتفق عليه ـ وهو قول ابن جني في (الخصائص ١/٤٤) .

وقائل إنها محاكاة لأصوات الطبيعة !!

وقائل . إنها نتيجة انفعالات تعرض لها الإنسان !!

وتصور أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس ـ رحمة الله عليه ـ (أن الكلمات الإنسانية الناشئة كانت كثيرة المبنى ، قليلة المعنى ، فالمجتمع جماعة من الشباب يمرحون ويلعبون ، ويستمتعون بالنطق ، دون هدف معين

سوى المتعة واللعب بألسنتهم ، كما كانوا يلعبون بأيديهم وأرجلهم ، أي : إن اللغة نشأت في صورة لعب ممتع ، لا يهدف إلى إيصال معنى إلى السامع .. بل كانت أشبه بمناغاة الطفل وأصواته المبهمة .. فلم يكن الإنسان الأول معنياً بالأفكار ، ولكن عنايته كانت مقصورة على الغرائز والعواطف ، ولعل الحب والغريزة الجنسية أقوى هذه العواطف ، فهو ينطق أو يصوت ليستلفت انتباه الأليف ، ويثبت وجوده واستقلاله ، كالطير حين ينتقل من فنن إلى فنن ، وهو يغني غناءً متواصلاً ، لعله بهذا ينال الحظوة لدى أليفه من الطيور .

كذلك كان الإنسان الأول يغني في أثناء صيده ، وفي حربه ، وفي كل ما يقوم به .. غناءً لا كغنائنا ـ يهدف إلى الطرب ـ وإنما هو تصويت منسجم تتردد فيه الأصوات والمقاطع .

ثم تطور هذا النطق من مجرد اللعب والمتعة ، وأصبح ذا هدف فيما بعد ، واستغل في التعبير عن كل ما يدور بخلد الإنسان من خير أو شر[1] .

والواقع أن كل افتراض لتفسير نشأة اللغة له نصيب ، ولو ضئيل ، من الصواب ، فكل الآراء تجتمع لتنسج ثوب اللغة في صورة مكتملة ، غير أنها جميعاً وقعت في خطأ مشترك هو خلطها بين البشر والإنسان من ناحية ، وتصورها أن اهتداء الإنسان للغة كان خلال الفترة الزمنية القريبة التي عاشها الإنسان منذ آدم عليه السلام باعتباره أول المخلوقات.. من ناحية أخرى .

(١) دلالة الألفاظ صفحة ٢٣ وما بعدها

والحق الذى نؤمن به هو أن اللغة ظاهرة بشرية معقدة شديدة التعقيد، ظهرت فى حياة البشر على مدى الملايين من السنين التى عاشوها قبل ظهور آدم عليه السلام ، وقد بلغت درجة من الكمال باعتبارها أداة تعامل على مشارف العهد الإنسانى الآدمى ، حتى تحملت ما دار من حوار بين الله وملائكته ، وبين الله وإبليس ، وبين الله وآدم وحواء ، بكل ما حوته هذه الحوارات من معان دقيقة وراقية .. أقرب شىء إلى التجريد ، والتجريد مستوى من الرقى اللغوى لا تعرفه سوى اللغات الحضارية الناضجة التى تجاوزت المحسوس إلى المجرد .

بل إننا حين نقرأ قصة ابنى آدم (هابيل وقابيل) يبهرنا فيها غزارة التجريد فى المعنى ، وثراء اللفظ ، حتى إن الإنسانية ما زالت دون بلوغ الأفق الأخلاقى والقيمى الذى عبرت عنه تلك القصة ، مما يدل على درجة من الحضارة الدينية ، بلغها الإنسان فى ذلك الزمان ، بعد أن كافح ملايين السنين فى مرحلته البشرية .

ولنقرأ نص القصة ، يقول الله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾ [المائدة] .

لقد ذكرت القصة : القربان ، وهو معنى دينى خاص ، وذكرت قبول القربان أو عدم قبوله ، ودلالة ذلك على التقوى ، والتهديد بالقتل والتسامح فى مواجهة التهديد ، خوفاً من الله ، رب العالمين ، وذكرت : مفهوم الإثم ، ومضاعفته ، وعاقبة الظلم ، وهى النار ، وسيطرة النفس الأمارة بالشر على القاتل حتى قتل أخاه ، وصار بذلك خاسراً دنياه وأخراه ، وأخيراً ذكرت الدرس الذى تلقاه القاتل من الغراب ، فتحول فعل الطير إلى معنى كبير من لوم النفس ، والندم العميق .

وكل هذه المعانى الدينية ذات دلالة على الرقى النسبى الذى بلغه الإنسان ، لعهد آدم .. لقد اجتازت اللغة مرحلة التعبير المادى فأصبحت معبرة عن المعانى الغيبية .. أى إنها عبرت مستوى الحقيقة إلى المجاز ، وهو تقدم خطير ، لم تبلغه البشرية إلا عبر ملايين السنين ، وقد توجت هذه المرحلة باصطفاء آدم ، نبياً يحمل رسالة الله إلى بنيه ، وهم الجيل الأول من أجيال الإنسانية .

ومن المعانى الغيبية المجردة ذات الدلالة العميقة على مذهبنا هذا - ما جرى على لسان إبليس وهو يغرى آدم وزوجه بالأكل من الشجرة المحرمة - قال : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) ﴾ [الأعراف] !! فمتى عرف آدم وزوجه معنى الخلود؟ وكيف لهما أن يتخيلاه ، وهو معنى مرتبط بواقع لم يحدث من قبل ، على فرض أنهما أول المخلوقات البشرية ؟؟ ونعنى به واقع (الموت) وهو ضد الخلود ؟

إن ذلك يؤكد أنهما عاينا أجيالاً سابقة حصدها الموت ، وابتلعها الفناء ، ولعل الخلود أو البقاء كان حلماً يراودهما ، فجاءهما الشيطان من هذا

الباب وقد عرف حلمهما ، أو نقطة ضعفهما ، فقاسمهما : ﴿إني لكما لمن الناصحين (٢١) فدلاهما بغرور .. (٢٢)﴾ [الأعراف] .

إننا لا نشك في أن آدم قد صنع على عين الله ، وأنه ظفر برعاية ربانية استثنائية جعلته في ذاته معجزة إلهية ، وكان آدم بذلك مدداً للمرحلة القادمة التي بدأت به مع زوجه حواء ، ومن خلال آدم بدأت الإنسانية مسيرتها بخطوات قاصدة راشدة ، على حين بادت الموجودات البشرية الطليقة الشاردة لتبدأ المرحلة الجديدة .. **مرحلة التكليف الديني .. بعبادة الإله الخالق الواحد** ، بعد أن تم للإنسان التعرف على الكون من حوله ، من خلال الأسماء التي تحدد وجود كل شيء والتي أعانه الله سبحانه على استيعابها .

ونعود إلى حديث اللغة فنقول :

لقد اقترنت نشأة اللغة بمجموعة هائلة من الصدف العشوائية ، يجل حصرها ، وكان المخلوق البشرى أشبه بطفل جلس إلى جهاز كمتور[1] ضخم ذى مفاتيح كثيرة كثيرة ، فأخذ الطفل في البداية يلمس هذه المفاتيح ، ويرقب أثر لمساته ، وكلما وجد أثراً على شاشة الجهاز كرر اللمس ليستمتع به أو بغيره ، حتى تكونت بينه وبين الجهاز ألفة أغرته بالمزيد ، فمضى يستخدم خبراته المثبتة نتيجة التكرار ، ويبنى تجارب أخرى مركبة من تجاربه البسيطة ، إلى أن سيطر على الجهاز مع تقدمه في العمر ، وصار به خبيراً . فكذلك الإنسان الذى ورث التراث [illegible] وتألقت في شخصه [illegible] البشرية ، وزاده الله مدداً وتعليماً ، فكان آدم عليه السلام [illegible] لبدء عهد جديد ، هو عهد الإنسان [illegible] آدم وبنيه .

---

(١) الكمتور : نحت عربي [illegible] من كلمة كمبيوتر

وبقى سؤال لم يطرحه أحد ممن تناولوا هذه القصة في القديم والحديث ، وهو : من أين جاءت تسمية آدم ؟!

والاسم رمز المسمى : فهل يمكن أن يطلق على آدم هذا الاسم دون أن تكون البشرية قد قطعت شوطاً هائلاً في الرقى اللغوى قبل مرحلة الإنسانية الآدمية ؟ وإذا قرأنا قوله تعالى : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ..(٣١)﴾ [البقرة]- فهل لا يوحى منطوق الآية على هذا النحو بأن الساحة كانت حافلة بأسماء كثيرة لموجودات مادية ، أو أسماء لمعان مجردة، وأن حصيلة ذلك كانت في عقل آدم؟ أو استطاع آدم أن يحصلها!!

قد يقول قائل ، إن اسم (آدم) هو اختيار الله ، أطلقه على أول خليفة في الأرض !!

ولكن التناسب الذى نجده بين الاسم والمسمى .. أى : بين معنى كلمة (آدم) والمادة التى ينتمى إليها وهى (أديم الأرض) - هذا التناسب لا يمكن أن يتصور حدوثه على سبيل الصدفة أو الفجاءة ، فالفجاءة خروج على سنة الله في الخلق والتسوية والإبداع ، وهو آيات العظمة الإلهية ودلائلها - فلم يبق إلا أن نفترض مستوى من النضج اللغوى بلغته البشرية في أواخر مرحلتها ، وفي بواكير العهد الإنسانى ، وهو ما يعنى أن العربية قديمة .. قدم التاريخ الإنسانى على هذه الأرض .. على الأقل .

لقد زعم العبرانيون أن لغتهم هى أقدم اللغات وأصلها وهو ما لم يسلم به أحد من علماء اللغات لانعدام الدليل على صحة مقولتهم ، أما نحن فنرى - انطلاقاً من ملاحظاتنا السابقة - أن العربية هى الأصل والأقدم ، ولذا كان اختيار الله لها في كل ما دار من حوار جرت به أحداث هذه القصة .

الفصل الثانى

الإنسان والملائكة

الملائكة عالم من عوالم الكون التي برأها الله ، خلقهم من مادة النور ، بهذا جاء الحديث الشريف برواية أحمد ومسلم رضى الله عنهما : (**خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من نار ، وخلق الإنسان مما وصف لكم**) ، وليس بلازم أن نبحث في ماهية هذا النور ، وهل هو النور الذى نألفه من مصدر كالقمر ، أو الضوء الذى عهدناه من مصدر الشمس ، أو هو نور آخر مختلف العناصر والأطياف لا ندرى كنهه ؟ ويكفي أن نذكر قياساً يَقِفُنا عند حدود أقدارنا ، فقد خلقنا الله من تراب ، وشتان ما بين هذا التراب واللحم الآدمي فى الشكل ، وإن اتحدت عناصرهما عند التحليل. فالمسافة هائلة لا يمكن للعقل أن يقطعها ، وكذلك الملائكة .. هم من النور ، ومع ذلك نتصور أن هيئتهم التي خلقوا عليها بعيدة جداً عن مادة النور التي نألفها ، وكل ما نملكه هو أن نؤمن بهم كما أخبر الله عنهم، وكما طلب منا الإيمان بهم ، فهم ملائكة الله وجنده ، وهم جزء من عالم الغيب الذى حجبت عنا حقيقته ، واستحالت علينا رؤيته ، ولعلنا نتذكر هنا أن البشر قد كانوا فى أقدار الخلق هم العالم الظاهر ، فى مقابل العالمين المخلوقين الخفيين - عالم الملائكة وعالم الجن ، وما شاء الله من خلق لا نعلمه .

ونحن من خلال الدين ندرك الدور الذى تؤديه الملائكة فى عالمنا

الإنسانى ، فمنهم ملهمون بالخير ، ومنهم حفظة .. سفرة .. كرام كاتبون، ومنهم حملة العرش ، ومنهم ملائكة السماء والسحاب والمطر والأرزاق والأقدار ، ومنهم الموكلون بحياة العباد وموتهم .. إلى ما لا يحصى من مهمات خصهم الله بالقيام عليها فى إدارة الكون ، فى السموات والأرض : ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾ [الأنبياء].

علاقة الإنسان بالملائكة

بدأت علاقة الإنسان بالملائكة على مشارف المرحلة البشرية ، وذلك حين أعلم الله الملائكة أنه خالق أو أنه يريد خلق (بشر من طين) ، وإعداداً لهم فى مواجهة ما سوف يحدث من متغيرات على ساحة الأرض ، وقد اختارها الله لإيجاد هذه الخليقة البشرية ، بعد أن جعلها مهداً ، وكان البلاغ الإلهى منطوياً على جملة من العناصر المستقبلية إضافة إلى ما كان منجزاً منه .. كان (خلق البشر) قد أنجز ، أو هو بسبيله إلى الإنجاز ، وهو دلالة الجملة الأولى : ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا﴾ ، ثم جاءت الأمور المستقبلية فى شكل هذا الأسلوب الشرطى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ .. وكان الله يريد من الملائكة أن تراقب ما يحدث من تغيرات فى أحوال هذا المخلوق الظاهر وصفاته ومقوماته ، حتى يسجدوا له كما أمرهم ، إذعاناً لأمره ، وإعظاماً لروعة إبداعه ، ومضت ملايين السنين وطحنت عشرات الألوف من الأجيال ، وربما مئاتها فى عملية التسوية والتزويد بالملكات العليا ، والملائكة تراقب أحوال ذلكم المخلوق وتحركاته ، حتى آن أوان السجود .

كان المدخل إلى معرفتهم بأن السجود قد آن أوانه خطاب الله سبحانه لهم بقوله : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠)﴾ [البقرة] وهو خطاب يتضمن إخبارهم بأن التسوية قد تمت ، وقد صار البشر مزوداً بالنفخة من روح الله ، وكان لهذا القول وقع المفاجأة على أسماعهم ، فهم يتابعون منذ ملايين السنين أحوال هذا المخلوق (البشر) ، ويعاينون من شئونه ما يحيرهم ، ولذلك بادروا إلى سؤال المولى عز وجل : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ .. (٣٠)﴾ [البقرة] ، وكأنهم يقولون لربهم : أهذا هو المخلوق الذى أمرتنا بالسجود له ، حين أخبرتنا بخبره منذ ملايين السنين ؟ لقد راقبنا أحواله منذ ذلك العهد السحيق ، فما رأينا منه غير الإفساد فى الأرض ، وسفك الدماء ، وهم يشيرون بذلك إلى السلوكيات الحيوانية التى كان عليها البشر فى مختلف مراحل تسويتهم ، حتى اكتمال ملكاتهم بالنفخة الإلهية وثمراتها .

ويحلو لبعض المفسرين - أو لجمهورهم - أن يفترضوا أن الملائكة كانوا يرون أنهم جديرون بهذه الخلافة دون البشر ، وهو افتراض لا يقبله العقل ، فقد كانوا يتمتعون بميزات الشهود والقرب من الله سبحانه ، وهى مرتبة عليا فى سلم المخلوقات - لم يبلغها غيرهم من الكائنات الأخرى !! إن الكون كله صفحة مبسوطة بين أيديهم وأنوارهم ، يرتادون آفاقه ، ويجوبون أنحاءه ، ويعلمون من أمره ما أذن الله لهم بعلمه ، وأين هذا البهاء والسناء من أحوال ذلك المخلوق الحيوانى ، اللازق بالأرض ، النابت من التراب ، المعربد فى ممالك الطير والحيوان ، السافك لدماء جنسه وغير جنسه !!

فما الذى تتمناه الملائكة أكثر مما هى فيه من اتصال بالملأ الأعلى ؟..

إن [illegible] سؤال الملائكة لا يتضمن رغبتهم في تلك الخلافة ، أو حسد البشر [illegible] بل هو تعبير عن استغرابهم لما يتوقعونه من استمرار الفساد [illegible] في الأرض على تسبيحهم وتحميدهم وتقديسهم لجلال الله [illegible] فموقع الجملة الملائكية : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [illegible] الحال ، أي : إننا غارقون في أنوار التقديس، في حين أن هؤلاء [illegible] في بحار الدماء ، لا يعرفون ديناً ، ولا يعبدون إلهاً .

وقال [illegible] ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وسكتت الملائكة ..

ونشير [illegible] إلى تسجيل ملاحظة على عبارة الملائكة : ﴿ وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ [illegible] إشارة إلى انتشار جرائم القتل في تلك العهود بين البشر ، ولم يكن [illegible] لهابيل إلا استئنافاً لسفك الدماء في العهد الإنساني ، عهد [illegible] بإدة الله وحده ، بعد انقراض بقية البشر ، وانتهاء العهد البشري [illegible] لم يعرف تكليفاً ولا تلقى رسالة ، ولا اتبع ديناً .

[illegible] كانت أولى الجرائم في العهد الإنساني ، وتميزت بالاهتداء [illegible] دفن الموتى من بني آدم لأول مرة ، بعد أن كانت الجثث تترك في [illegible] الحيوانات النافقة ، تأكلها الضواري ، أو تتآكل .

وقول [illegible] ﷺ ، فيما رواه البخاري والنسائي عن مسروق عن عبد الله [illegible] نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها ، وذلك [illegible] سن القتل) ـ يشير أيضاً إلى موقع ذلك الجرم من المسئو[illegible] النفس [illegible] ارتكاب هذه الجريمة [illegible] تكن هناك مسئولية عن قتل النفس [illegible] مسئولية إلا بعد [illegible] وقبل آدم لم يكن رسول ولا دين [illegible] مسئولية ، وبعد آدم بدأ العهد الإنساني فكانت المسئولية الدينية [illegible] ابن آدم الأول وزر قتل أخيه ، وعليه كفل من دم كل نفس

تقتل ظلماً ، لأنه أول من سن القتل ، أي : هو أول من خرج على الدين ، واتخذ لنفسه سنة أخرى ، هي سنة الظلم والقتل ، لا سنة الدين والعدل ، وفي الحديث : (**من سن سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**) .

لقد قال الله سبحانه للملائكة : ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ومضمون هذا الخبر أمر لهم بالسكوت ، فسكتوا ، ودارت الأقدار على نهج المشيئة ، وبدأ الدرس الأول ، أو الرسالة الأولى في تاريخ الإنسانية : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ .. وحتى هذه اللحظة لم تكن الملائكة تعلم : مَنْ ذلك الذي جعله الله من بين البشر خليفة في الأرض ؟!! ولم يكن آدم قد ظهر على المسرح ، فاصطفاؤه كان في علم الله وحده .. وهم معذورون لأنهم لا يرون في تلك الحقيقة إلا الجانب السلبي ، أما الجانب الإيجابي فمحجوب عنهم ، ولم يكشف الله لهم شيئاً من أسراره .

وجاء وحي الله بالرسالة والاصطفاء إلى آدم ، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ وهذه أول مرة يذكر فيها لفظ (آدم) ، وتعليم الله له هو فحوى رسالته التي لم تذكر إلا في هذه الآية ، وهي آية لا يمكن تفسيرها إلا في ضوء قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)﴾ [آل عمران]

إن آدم رسول مصطفى من الله ، تماماً كنوح وإبراهيم ، ولقد كانت لنوح ملحمة كبيرة تحدث عنها القرآن في أكثر من موضع ، وكانت لآدم ـ قبل نوح ـ ملحمته الكبرى التي بدأت بهذه اللمحة الإلهية ، فقد علمه ما لا تعلم الملائكة .. علمه الدين ، والرسالة التي سوف يبلغها لبنيه ، وهو ما

بدا متألقاً في الحوار الذي دار بين ابنيه متضمناً كل المفاهيم التوحيدية ، وأمهات الأخلاق الدينية ، وتكم هي الأسماء التي تعلمها آدم عن ربه . ولا يوجد حرص القرآن على أن يؤكد أنه تعلم ﴿الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ، فلعل آدم كان يعرف بعض الأسماء فتولى الله سبحانه تعليمه كل الأسماء ، فيما يتصل بالمهمة التي سينهض بها . خليفة في الأرض ، ومن بين الأسماء التي تعلمها أسماء الملائكة المشاركين في هذا الحوار ، وقد تضمن القرآن بعض هذه الأسماء فتعلمها المؤمنون من الوحي .

كان اصطفاء آدم للرسالة الإنسانية الأولى غيباً محجوباً عن الملائكة . لا يعلمه إلا رب العزة ، وكانت الأسماء التي تعلمها متعلقة بالأمانة التي ناطها الله بآدم وذريته ، وهو ما لم تعلمه الملائكة من قبل .. إنها بداية عهد جديد ، وإشراقة جيل الإنسان على أنقاض الركام البشري . وحين عرض الله سبحانه هذه المضامين على الملائكة : ﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)﴾ [البقرة]

ولا مانع من أن يشار إلى المعروضات الماثلة في الموقف بإشارة العقلاء (هؤلاء) . لأن الأسماء تتعلق بأشخاص وأشياء تفرد آدم بعلمها ، وأقرت الملائكة بأنها لا تعلم إلا ما سمحت به من قبل مشيئة الله ، ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾ [البقرة]

ووضح في الموقف تفوق آدم واختصاصه بالرسالة والاصطفاء ، وهنا حانت لحظة السجود لآدم تنفيذاً للأمر الصادر منذ بضعة ملايين من السنين .

فسجود الملائكة كان في تقديري سجوداً لآدم النبي المصطفى .

الفصل الثالث

السجود للنبي الإنسان

ورد موضوع السجود لآدم في سبع سور من القرآن ، هي بترتيب النزول :

١ – السورة السابعة والثلاثون (ص) : ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤)﴾ [ص] .

٢ – السورة الثامنة والثلاثون (الأعراف) : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١)﴾ [الأعراف]

٣ – السورة الرابعة والأربعون (طه) : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦)﴾ [طه] .

٤ – السورة التاسعة والأربعون (الإسراء) : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١)﴾ [الإسراء] .

٥ – السورة الثالثة والخمسون (الحجر) : ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١)﴾ [الحجر]

٦ – السورة الثامنة والستون (الكهف) : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠)﴾ [الكهف]

٧ - السورة السابعة والثمانون (البقرة) : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)﴾[البقرة].

ويلاحظ على ما سبق من النصوص القرآنية ما يأتى :

١ - أن النصوص الستة الأولى مكية ، والنص السابع مدنى .

٢ - أن النص فى سورة (ص) يجعل السجود عقب تمام النفخ من روح الله ، وكأنه جزاء وجواب للشرط ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ ، وكذلك أيضاً السياق فى نص سورة (الحجر) ، أما النص فى سورة (الأعراف) فيوحى بوجود مسافة زمنية بين مرحلة التصوير (أو التسوية) وبين الأمر بالسجود ، كما سبقت ملاحظته ، ولكن استجابة الملائكة للأمر كانت فى سياقها فورية مقرونة بالفاء .

وتتشابه النصوص فى بقية الصور المكية فى (طه والإسراء والحجر والكهف) - إذ يأتى السجود جواباً للأمر (اسجدوا) (فسجدوا) .

أما النص المدنى فى سورة البقرة فيجعل الأمر بالسجود عقب فصل هام من القصة ، هو الحوار بين رب العزة والملائكة فى شأن (الخلافة فى الأرض) ، وهى إضافة بارزة لم ترد فى أى نص قرآنى سابق أو لاحق .

لقد كان أهل التفسير يرون دائماً أن السجود الملائكى قد حدث عقب نفخة الله سبحانه ، التى أنهضت آدم (بشراً مُسوًّى) . وهو رأى سائد فى كل التفاسير . إذ إن الملائكة رأت فى تحرك هذا المخلوق الطينى آية إلهية تستوجب السجود - تكريماً لآدم ، وطاعة لله عز وجل . بحسب الرؤية القديمة وهو ما يقوله الأستاذ البهى الخولى (ص ٥٩) سجدوا

- الملائكة - له بأمرٍ من الله عز وجل عندما نفخ فيه سبحانه من روحه) .

أما نحن فنرى تطبيقاً لتصورنا أن نص سورة البقرة ، وهو النص الأخير الذى يحكم جميع النصوص السابقة ، ويهيمن عليها - هذا النص ، قد طرح ترتيباً آخر للأحداث ، فجاء بالأمر بالسجود بعد مشهد الحوار بين الله وملائكته عن اتخاذ خليفة فى الأرض ، ولم يكن آدم معلوماً آنذاك للملائكة ، رغم أنه كان موجوداً على الساحة بين أغمار البشر ، ولذلك عممت الملائكة الحكم على البشر ، وأنهم يفسدون ويسفكون الدماء ، ولو كانت الملائكة تعرف أن المقصود آدم ، فربما استثنته من هذا التعميم ، ولذلك قال الله : ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

وهنا دخل آدم إلى مسرح الحوار ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ .. (٣١) ﴾ [البقرة] . كان التعليم هو الوحى الذى علم آدم ما لم يكن يعلمه ، وهو اصطفاؤه نبياً ، وتزويده بالضرورة من التعاليم الدينية ، ليبدأ الموكب الجديد ، موكب الإنسان المكرم فى شخص آدم : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ .. (٧٠) ﴾ [الإسراء] . وموقف آدم عليه السلام فى هذا هو موقف محمد ﷺ ، وقد قال الله له ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ .. (١١٣) ﴾ [النساء]

وفى هذا الموقف علمت الملائكة لأول مرة أن المقصود بالخليفة هو (آدم) ، وليس غير .. إنها النبوة ، طليعة الموكب الإنسانى ، وقاعدة انطلاق الخلق الذى بدأت خطواته التنفيذية منذ ملايين السنين ، فوجد كماله فى شخص آدم ، النبى المصطفى .. يالها من قدرة هائلة : تابعت عملية الخلق خلال هذا الزمن المتطاول !! وياله من إنجاز رائع تجلى أعظم تجلٍ فى

شخص آدم الرسول ، الذى تفوق على ملائكة الرحمن !!

في هذا المشهد الكوني العظيم أمر الله ملائكته بالسجود لآدم ، تكريما وتكليفا : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ـ إنه موقف يثير من الأعماق كوامن الطاعة والإعجاب . كما يحرك دوافع الحقد ودفائنه ، وفي هذا المشهد ولد الشيطان !! الكافر المتأبي المستكبر !! ..

ولا بد أن نتعرض هنا لمعنى السجود والمراد به في هذا الموقف ، وننقل عن الأستاذ البهي الخولي ما قاله في كتابه (آدم عليه السلام ص ٥٩) :

(ومن البديهي أن هذا السجود لم يكن سجود عبادة ونسك ، فإن ذلك لا يكون لغير الله ، إنما هو سجود تحية وتكريم ومؤانسة ، وليس ضروريا أن يكون سجوداً وضعوا له الجباه على الأرض ، كما نفعل في سجودنا لله عز وجل ، فللسجود هيئات كثيرة تتنوع بتنوع أصناف الخلائق ، والله سبحانه يقول في ذلك : ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦)﴾ [الرحمن] ، ويقول على لسان يوسف لأبيه : ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)﴾ [يوسف] ، ويقول : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩)﴾ [النحل] .

ومن البديهي أن سجود الدواب ليس كسجود الملائكة ، وسجودهما ليس كسجود الكواكب والشمس والقمر ، وسجود هؤلاء جميعاً ليس كسجود الشجر والزرع الصغير .. وهكذا .. ذلك إلى أن من معاني السجود في اللغة التطامن والتواضع ، ويقول صاحب المصباح المنير : (وسجد البعير خفض رأسه عند ركوبه ، وكل شيء ذل فقد سجد) ، فإذا كان في سجود الملائكة معنى الذل فليس هو ذل العبودية ، ولا الذل المضيع للكرامة ، إنما هو ذل التطامن والمودة الذى ترى شيئا منه في قوله تعالى

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ .. (٢٤)﴾ [الإسراء] ، وتراه فيما يتبادله رحماء المؤمنين بينهم من انكسار الأخ لأخيه المؤمن الذي عبر عنه الحق تبارك وتعالى بقوله : ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤)﴾ [المائدة]

فهو سجود فيه معنى التحية والمودة وخفض الجناح ، والإقرار بالفضل ، قال القرطبي في الجامع : (وقال قوم : لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم ، الذي هو وضع الجبهة على الأرض ، ولكنه مبقي على أصل اللغة ، فهو من التذلل والانقياد .. أي : خضعوا لآدم ، وأقروا له بالفضل) (القرطبي ١ / ٢٩٣) .

والواقع أن الموقف لم يكن بحاجة إلى هذا العناء لتفسير السجود بالتذلل أو خفض الجناح ، أو الإقرار بالفضل ، فذلك كله مبني على التصور القديم الذي يرى الموقف محصوراً في اللحظات التي انبهرت فيها الملائكة بدبيب نفخة الله في جسد آدم ، وهو تصور تَبَيَّنَ قصوره عن فهم الموضوع في ضوء معطيات العلم ، واحتمالات النصوص القرآنية .

والذي نطمئن إليه هو أن سجود الملائكة كان يعني تكليفهم بحياطة الحياة الإنسانية ، ابتداء من (آدم) ، وهو تكليف ماض إلى يوم القيامة ، تتولى الملائكة فيه المحافظة على بني آدم ، وإلهامهم الخير ، طبقا لمشيئة الله سبحانه ، في مقابل ما توعد به إبليس آدم وذريته من الغواية والاحتناك والهيمنة والتضليل .

فالملائكة هم بموجب أمر السجود ـ أحد طرفي المعادلة في الحياة الإنسانية ، التي قامت على الصراع بين الخير والشر .

وعلى ذلك فقد سجد الملائكة ، وما زالوا ساجدين ، لآدم ، ولبنى آدم ، وهذه هى الكرامة التى كفلها الله لهذه الذرية المصطفاة من خليقته البشرية طبقاً لما قررته آية سورة الإسراء : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) ﴾ [الإسراء] ، وهى أيضا الكرامة التى أشار إليها إبليس فى قصة الحوار فى سورة الإسراء : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ .. (٦٢) ﴾ [الإسراء] . فقد احتقن حين رأى ما خص به آدم من تكريم وكرامة ، فتوعد بأن يضله وذريته ، ليظهر عدم استحقاقهم لهذه الكرامة .

الفصل الرابع

موقف إبليس من السجود

لإبليس فى قصة آدم موقفان : موقف مع رب العزة ، وموقف مع آدم وزوجه حواء ، والموقفان يتحولان فى النهاية إلى موقف واحد ، هو موقف الصراع بين الخير والشر ، أو التناقض بين الملائكة والشيطان ، ومجال الصراع دائماً هو نفس الإنسان (آدم وذريته) .

ويظهر إبليس فى مشهد التكليف بالسجود فجأة ، ودون مقدمات ، فلم يرد له ذكر قبل هذا المشهد ، وما كان سوى واحد من (الجن المنتشرين فى أرجاء الأرض ، ولعله كان ذا حظوة واقتراب من عالم الملائكة حتى جاء الأمر بالسجود ، وكأنه مقصود به معهم ، والقرآن ينص على ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] .

ولعل تجاهل القرآن لذكره فى خبر الأمر بالسجود ـ إنما كان لأنه مجرد فرد من (الجن) ، على حين أن الخطاب كان لعالم الملائكة بإطلاق. فلما شذ فى موقفه ، وأعلن رفضه لأمر الله .. ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ : صار علماً على الشر ، فى مقابل استجابة الملائكة الذين صاروا أعلاماً على الخير .

ونحسب أن الأمر لم يكن بالصورة التى يتخيلها العامة من المفسرين ،

... الملائكة ومعهم إبليس بين يدي الله ، جل وعلا ، وآدم واقف ... السجود . فقد استقر رأينا على أن السجود كان لآدم النبي ... الخليفة . والذي استهل به عهد الإنسان ، لا لآدم المخلوق ، فإن ... أن قد مضت عليه ملايين السنين . وإن لم يكن فرق بين ... وعليه ، فإن تكليف الله سبحانه للملائكة بالسجود كان ... لهم بالاشتغال بحفظ ذلك الخليفة النبي ، وذريته إلى يوم ... رفض إبليس أن يخضع للأمر الإلهي ، وأن يعمل في خدمة الملائكة ، وبذلك انشق على الأمر الإلهي ، وصار عدوا لآدم ... صار عدوا لله خالقه ، وقد استعلن بهذه العداوة ، فلم يرجع ... أنه عبد الله !!

... تكوّن التشكيل الجديد للحياة كما أرادها الله : صراعاً بين ... الشر ، وتناقضاً بين الشيطان والملائكة في شأن الحياة ... وآدم وذريته موضوع الصراع ، وأدواته ، وهم أبطاله أو ... ليبدأ للمرحلة الثانية من الملحمة الوجودية ، مرحلة الحساب ، ... والخلود فيهما .

... الذي رفض السجود والتكليف ـ كان عاصياً لأمر الله من ... أداة لتنفيذ إرادة الله من ناحية أخرى . ولولا أنه رفض ... كبر رأسه ما كانت هذه الدنيا ، وهو أمر لم يكن مقصوداً له ... به ولم يكن يدريه قبل أن يكون .

... الآن إلى النص الأول من التنزيل ، الذي ذكر هذا المشهد في ...) ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين (٧١) فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (٧٢) فسجد الملائكة كلهم أجمعون (٧٣) إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين (٧٤) قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين (٧٥) قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (٧٦) قال فاخرج منها فإنك رجيم (٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين (٧٨) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٧٩) قال فإنك من المنظرين (٨٠) إلى يوم الوقت المعلوم (٨١) قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين (٨٢) إلا عبادك منهم المخلصين (٨٣) قال فالحق والحق أقول (٨٤) لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (٨٥) ﴾ [ص] .

ويبدو لنا هذا النص أشبه بتلخيص للحوار ، أو بالأحرى للقصة التي جاءت تفاصيل كثيرة منها في السورة التالية نزولاً ، سورة (الأعراف) . لكن حسبنا الآن هذا الموجز الذي يقتصر على جانب الحوار بين الله وبين المتمرد إبليس .

وفي بداية النظر في مكونات الحوار نؤكد هنا على ضرورة مراعاة المسافة بين ما ينبغي لله من جلال وعظمة وعلو شأن ، وهو سبحانه الخالق البارئ المصور ، وبين إبليس من حيث هو مخلوق يواجه خالقه ، وهو لا يزيد في قدره عن أي مخلوق متمرد على أوامر الخالق ، مُصرٌّ على معصيته ، سواء أكان من الإنس أم من الجن .. هذا من ناحية ..

ومن ناحية أخرى يجب أن نستبعد الصورة الساذجة التي يتخيلها بعض من تناولوا هذه القصة .. أعني صورة المواجهة المباشرة في هذا الحوار ، فلا ريب أن الشيطان كان في موقعه من الكون ، لا يستطيع أن يتجاوز قدره ، فيتطاول إلى المقام الأسنى ، مقام رب العزة ، ليجابهه بتلك

المقولات . فإنه أعلى وأجل من أن تدركه الأبصار ، أو تحده الأوهام والظنون . وغاية ما نتصوره أن يكون الحوار قد جرى من خلال الوحى النفسى . الذى أحاط بتفاصيله من يعلم السر وأخفى ، فهو ـ والله أعلم ـ حوار جرى فى نفس إبليس ، حين رفض الأمر بالسجود ، من منطلق اعتقاده بأنه خير من آدم من حيث الأصل ، فهو من نار ، وآدم من طين ، وذلك رداً على ما ثار فى نفسه من أن إباءه السجود لا تفسير له إلا الكبر والغطرسة . وحينئذ جاءه الأمر الإلهى ـ أيضاً ـ من طريق الوحى النفسى . ﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .. وهكذا سار الحوار إلى نهايته ؛ بكل ما تضمن من حقائق وأقدار عبرت عنها كل رسالات الأنبياء ، من لدن آدم إلى محمد ، عليهم جميعا أفضل الصلاة وأتم السلام .

وقد يحلو لبعض المتفلسفة أن يروا فى هذا الموقف الإبليسى تعبيراً عن القوة والشجاعة الأدبية .. بل وزاد بعضهم فى المغالطة ، فرأى فى هذا الموقف آية على منتهى التوحيد ، فهو لا يسجد إلا لله وحده !! .. وتخيل بعضهم أن إبليس حين تمرد على الله صار رمز الحرية ، وزعيم الأحرار الرافضين للقيود !! ..

والواقع أن موقف إبليس فى ذلك الحوار يعكس ملامح شخصية متناقضة غبية ، غاية فى الغباء والتناقض ، والضعف ، والجبن ، والجهالة، وذلك إذا ما احتكمنا إلى المقاييس الأخلاقية المثالية ، وإنما أضفى عليه حلم الله الواسع هالة من التعاظم تليق بمتكبر حقود ، هو إبليس .

فليس من القوة أن يتصدى المخلوق للخالق ، ويتمرد عليه ، وهو يعرف يقيناً أنه هو الخاسر فى النهاية .. بل وهو يعلم أنه يخاطب ربه ذا القوة المطلقة ، والبأس الشديد .

وليس من الشجاعة أن يتجرأ على الله ، وهو يعلم أن ذلك يؤدى به إلى جهنم ، وبئس المصير ، ثم يستمر فى هذا التجرؤ إلى حد الوقاحة والتحدى العبيط !!

وليس التوحيد إلا الإذعان بالعبودية والطاعة المطلقة لله وحده لا شريك له ، والانصياع لأوامره ، وإبليس حين رفض السجود لآدم لم يكن إلا رافضاً لأمر الله ، وقد أوقعه فى هذا الجرم سوء تأوله ، أو لنقل : إنه قد ركبه فى هذه اللحظة شيطان آخر أعتى منه ـ لو صح التصور ـ فأغراه بالتمرد ، وأعماه عن تبين وجه الحق الذى أدركته الملائكة . فالملائكة هم فى الواقع أذكى منه ، وأعمق توحيداً ، على حين خرج هو عن دائرة التوحيد !!

ويكفى دليلاً على غباء إبليس أنه وقد خفى عليه المعنى الصحيح للسجود ، وهو موالاة آدم وذريته ـ إلى يوم القيامة ، كما أدركت ذلك الملائكة ـ انبرى بعقله الغبى يعقد مقارنة بين النار والطين ، ويزعم خيريته على آدم من هذا الجانب ، مع أن الطين عند التأمل خير من النار ، فهو زكى معطاء ، وهى أداة إهلاك وعذاب .

وفضلاً عن ذلك ؛ فإن الأمر بالسجود لآدم لم يكن يعنى أفضليته ، بقدر ما كان يعنى إرادة تنظيم الحياة الجديدة على أساس من تعاون المستويات الخلقية الثلاثة : النور والطين والنار ، أو الملائكة ، والبشر والجن ، وخضوع الجميع لأمر الله وإرادته .

وهب ـ يا إبليس ـ أن السجود كان يعنى الأفضلية ، فإن هذه الأفضلية لم تكن تعنى الأصل المادى ، بل هى تعنى تعلق الإرادة الإلهية بالأمر

...ه من ناحية ، ثم إن معيار الأفضلية في مستواها العلوي ليس مادة ... ، من طين أو من نار ، بل هو التنافس في طاعة الله ، كما قال تعالى ... كم التنزيل : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... (١٣) ﴾ [الحجرات] ، فقد ... في سماوات الرضوان جني من نار ، وقد يرسب في قاع الجحيم ... من طين ، لأن المعيار هو التقوى .

... سجل إبليس على نفسه نقطة غباء ، حين حصر نفسه في ملاحظة ... بين الطين والنار ، ولو كان ذلك صحيحاً لفخرت الملائكة عليه بأنها ... (النور) ، وهو خير من النار قطعاً ، بمقياس إبليس .. بل وبكل ... !! وإذا كان أتباع الشيطان وعبدته قد تصوروا أن إلههم هو رمز ... ، وزعيم الأحرار فما ذلك إلا أثر من آثار تسلطه بغبائه على ... ، إن كانت لهم عقول ، لقد تعلقوا بمفهوم التمرد الذي أبداه إبليس ... واجهة أمر خالقه ، ولم ينظروا إلى أنه لم ينكر ربوبية الله ، في ... أن ينظره إلى يوم البعث ، وفي قسمه بعزة ربه ، وهو مسلك يصمه ... ض أو بالجنون ، إذ كيف يقبل منه أن يتمرد على (رب العزة) ... ، ويختار طريق الغواية والإغواء والذلة ، عامداً متعمداً .. اللهم إلا ... ن غبياً غاية في الغباء ، أو منقاداً لشيطان أعتى منه ، تسلط عليه ... أضله هذا الضلال المبين ؟!! وحتى فقد القدرة على التمييز فلم يلحظ ... سه الفاضح !! فإذا لم يكن هناك شيطان قبله ، فهو إذاً انطماس ... يرة ، وعمى البصر ، وهو أولاً وأخيراً الحقد الذي ملكه تجاه آدم ...

... هي الحرية إذاً ؟ اللهم إلا أن يكون معنى الحرية هو الانتحار ... ، والتحلل من كل قيمة تعمر بها الحياة .. أن يكون معنى الحرية

هو تخريب الدنيا ، وتدمير بنائها الإلهي ، ونشر الفساد والإلحاد ، وإشاعة الفوضى والانفلات ، وسيادة الحقد على وجود الحياة كلها ؟!!

ومع ذلك ، إن إبليس كان في موقفه مغروراً ، لأنه زعم لنفسه القدرة على إغواء الناس أجمعين ، إلا المخلصين منهم من عباد الله ، وعجيب أن يدرك هذا الفرق بين الغواية والإخلاص ثم يستمر في مزاعمه ، فكان نذير الله له بأن يملأ جهنم منه ومن أتباعه أجمعين ، وبهذا ختم الحوار ـ كما قدمته سورة (ص) ـ في أول سياق يتعرض لهذه القصة .

فإذا قرأنا ما جاء في السورة التالية لها ، في سور الأعراف ـ الثامنة والثلاثين ـ وجدنا مزيداً من التفاصيل عن أساليب إبليس في إفساد الحياة الآدمية (الإنسانية) ، وهو مضمون قوله : (لأغوينهم) : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) ﴾ [الأعراف] .

وفي السورة التاسعة والأربعين ـ الإسراء ـ يخاطب إبليس ربه : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) ﴾ [الإسراء]

ويجيبه الله سبحانه ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) ﴾ [الإسراء] .

وفي السورة الثالثة والخمسين ـ الحجر ـ ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ

لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين (٣٩) إلا عبادك منهم المخلصين (٤٠)﴾ [الحجر].

وفي السورة الثالثة والتسعين - النساء - يأتي حديث عن الشيطان، والمقصود به إبليس - قال تعالى: ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا (١١٧) لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا (١١٨) ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا (١١٩) يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا (١٢٠)﴾ [النساء].

وهكذا - عبر النصوص المتتابعة - يتضح المقصود بالغواية في قوله تعالى: ﴿**لأغوينهم**﴾، فهو يقعد لبني آدم على الصراط المستقيم، بأن يعترضهم على طريق الإسلام، وهو يتسلل إلى حياتهم من كل اتجاه بوسوسته بقدر ما يستطيع، وقد ورد في الحديث: (**إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه: قعد له بطريق الإسلام فقال له: تدع دين آبائك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال له: تدع ديارك فتتغرب، فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له: تقاتل فتقتل فيقسم مالك، وتنكح امرأتك، فعصاه فقاتل**) (الكشاف ٢/ ٧٠ - ٧١). وإبليس يتوعد هنا بأن يحاصر بني آدم من جميع الجهات، كناية عن محاولته الهيمنة عليهم ليذلهم عما خصهم الله به من الكرامة، وهو ما جاء في النص التالي في سورة الإسراء، التاسعة والأربعين نزولاً، في الآية الكريمة: ﴿قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا (٦٢)﴾ [الإسراء]، والاحتناك، مأخوذ من الحنك - فكأنه يتوعد بأن يلتهم بوسوسته بني آدم، إلا قليلاً منهم، ممن

يعصم الله من غواية الشيطان، وهذه صورة أخرى من تفسير معنى الإغواء.

ويرد الله سبحانه وتعالى عليه هذا الوعيد: ﴿قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا (٦٣) واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا (٦٤) إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا (٦٥)﴾ [الإسراء]. وفي هذا الرد توصيف لوسائل الإغواء، ومدى ما يمكن أن يكون لإبليس من أساليب تخريب الحياة الإيمانية؛ أن يستفز الناس ويستخفهم بصوته، وأن يجلب عليهم ويصيح بهم بكل ما يملك من خيل ورَجِل، وهو كناية عن الضجيج والصخب، والتسلط، وقد يدخل في مضمون الصوت والجلبة كل كلام من العبث والمجون، والفحش والبذاء، ونداءات الجنس، وأفلام الانحلال، وكل هذه أساليب شيطانية تحقق أهداف إبليس.

وحسبنا في هذا قول رسول الله ﷺ: (**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**)، فهو جار إلى المخ مباشرة، ويبقى في الآيتين السابقتين قوله تعالى: ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾، وقد فسره الزمخشري بقوله: وأما المشاركة في الأموال والأولاد فكل معصية يحملهم عليها كالربا، والمكاسب المحرمة، والبحيرة والسائبة، والإنفاق في الفسوق والإسراف، ومنع الزكاة، والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام، ودعوى ولد بغير سبب، والتسمية بعبد العزى، وعبد الحارث، والتهويد والتنصير، والحمل على الحرف الذميمة، والأعمال

المحظورة ، (وعدهم) المواعيد الكاذبة من شفاعة الآلهة ، والكرامة على الله بالانساب الشريفة ، وتسويف التوبة ، ومغفرة الذنوب بدونها ، والاتكال على الرحمة وشفاعة الرسول فى الكبائر ، والخروج من النار بعد أن يصيروا حمما ، وإيثار العاجل على الآجل (الكشاف ٢/٤٥٧) .

وهذه هى أساليب الغواية الشيطانية التى نزلت فيها الآيتان من سورة الحجر ، وهى الثالثة والخمسون نزولا : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾ [الحجر] ، فعبارة (لأزين لهم فى الأرض) تلخيص لما ورد من أساليب الغواية فى سورة (ص والأعراف والإسراء) ، وقد جاءت الآيات من سورة النساء المدنية ، وهى الثالثة والتسعون نزولا – وهى أيضا آخر ما نزل فى وصف الاعيب الشيطان ، جاءت تلك الآيات بمثابة الاستقصاء النهائى لتلك الالاعيب .. قال تعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) ﴾ [النساء] .

والنص هنا يذكر من أساليب الشيطان (الإضلال) وهو لفظ عام يشمل كل ما مضى ، ويضيف النص أسلوب (التَّمْنية) بالأمانىّ الباطلة من طول الأعمار ، وبلوغ الآمال ، ورحمة الله للمجرمين بغير توبة ، إلى غير ذلك من الأمانىّ الكواذب ، ثم يذكر ما كانت تعرفه الجاهلية من تبتيك آذان الأنعام ، أى : شق أذن الناقة إذا ولدت خمسة أبطن ، وجاء الخامس

ذكرا ، وتحريم الانتفاع بها ، ثم يلى ذلك ما كانت تعرفه الجاهلية أيضا من (تغيير خلق الله) ، وكان ذلك يتمثل فى فقء عين الفحل الحامى ليعفى من الركوب ، كما يتمثل فى خصاء بنى آدم ، وقيل : إن المقصود تشويه الإسلام ، وهو فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وقيل : الوشم ، وقيل : التخنث (الكشاف ١/٥٦٤ – ٥٦٥) .

ونسجل هنا بضع ملاحظات :

الأولى : أن إبليس فيما توعد به لم يكن يرسم خريطة الحياة الآدمية المستقبلة ، فما كان بالذى يعلم الغيب ، ولكنه كان فى موقفه يطفح حقدا ، وينطق كذبا وغرورا .. هو صورة مما يتمنى أن يكون ، ولسوف نجد أن ما ذكره من عوائد الجاهلية لم يكتب له البقاء ، ولم يعد له أثر .. بل تلاشى من الحياة الإنسانية تماما ، ولعله استبدل به أساليب أخرى تتناسب مع فنون العصر وجنونه .

والثانية : أن تلقينا لمقولات إبليس لا ينبغى أن يخدعنا عن حقيقته ، وهى أنه غبى ومغرور ، بل هو (الغَرور) .. لم يتصف كائن بذلك سواه : ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾ [فاطر] ، أى : الغوى الأكبر ، وكل مواقفه وأساليبه تدل على ذلك ، ولسوف تزيد هذه الملاحظات عمقا فى حديثنا عن شخصية الشيطان كما تصورها آيات القرآن .

والثالثة : أن ما ذكرنا من أساليب الإغواء الشيطانى ليس إلا الشكل النظرى ، والتوعد المغيظ – إن صح التعبير – فأما التطبيق العملى فهو فى كل عصر بحسبه ، ومع كل إنسان بحسبه أيضا ، والهدف الرئيسى أن يزيد من حصيلة جهنم من بنى آدم ، حتى لا يصلاها وحده ، أو مع

اتباعه من شياطين الإنس والجن وحدهم .

ويبقى من هذا الحوار ما جاء من قوله تعالى في سورة (ص) : ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) ﴾ [ص] ، وقد جاء في مقابلها في سورة الأعراف : ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) ﴾ [الأعراف] ، كما تكرر هذا الأمر بعدما أظهر إبليس من وقاحة في مخاطبة المولى عز وجل : ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا .. (١٨) ﴾ [الأعراف] .

وما جاء في سورة الحجر لا يختلف عما في سورة (ص) : ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) ﴾ [ص] .. وقد استخدم النص الكريم أحد لفظين : ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أو ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ ، وكلاهما يثير سؤالاً عن المقصود بالضمير في (منها) ، علام يعود هذا الضمير ، ولم يتقدم ذكر لما يعود إليه ؟.. وذلك مع ملاحظة أن الأمر موجه إلى إبليس وحده ، على خلاف الأمر الآخر الذي جاء في الحوار مع آدم وزوجه بعد الوقوع في الخطيئة : ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .. (٢٤) ﴾ [الأعراف] ، أو : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .. (١٢٣) ﴾ [طه] ، أو : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا .. (٣٨) ﴾ [البقرة] .

إن المتأمل في الأمر الموجه إلى آدم وزوجه لا يعسر عليه أن يلاحظ عود الضمير إلى (الجنة) المذكورة في السياق المتقدم من القصة ، أما الأمر الموجه إلى إبليس وحده فهو الذي يثير التساؤل ، وقد ذهب الزمخشري إلى أن المراد هو الهبوط أو الخروج من السماء التي هي مكان المطيعين المتواضعين من الملائكة إلى الأرض التي هي مقر العاصين المتكبرين من الثقلين .. ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ وتعصى ﴿ فَاخْرُجْ

إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ . أي : من أهل الصغار والهوان على الله ، وعلى أوليائه لتكبرك .. وذلك أنه لما أظهر الاستكبار (أُلْبِسَ الصغار) (الكشاف ٢/ ٦٩) .

ويرى صاحب المنار : (أن الهبوط هو الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه ، أو من مكانة ومنزلة إلى ما دونها ، ثم قال : والضمير عائد إلى الجنة التي خلق الله فيها آدم ، وكانت على نشز مرتفع من الأرض (المنار ٨/ ٢٩٦) ، ولعل بيان الزمخشري أقرب إلى العقل ، لعدم تقدم ما يعود عليه الضمير ، سوى ما يفهم من المقام ، والأمر ليس إهباطاً مادياً .. بل هو نوع من الزجر ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ .. ﴾ ، ولأن الجنة التي وردت في الحوار مع آدم قد أسكنه الله إياها بعد صدور هذا الأمر إلى إبليس ، وقريب من ذلك ما ذكره صاحب المنار عن الحافظ ابن كثير قال : (يقول تعالى لإبليس بأمر قدر كوني فاهبط منها بسبب عصيانك لأمري ، وخروجك عن طاعتي ، فما يكون لك أن تتكبر فيها : قال كثير من المفسرين : الضمير عائد إلى الجنة ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزلة التي هو فيها من الملكوت الأعلى ﴿ فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ .. أي : الذليلين الحقيرين .. معاملة له بنقيض قصده ، ومكافأة لمراده بضده ، فعند ذلك استدرك اللعين ، وسأل النظرة إلى يوم الدين) . (المنار ٨/ ٢٩٧) ، وعلى نسق هذا الأسلوب تجري تعبيرات مماثلة على ألسنة العوام ، لا تراد حرفيتها .. بل المراد مضمونها التوقيفي ، كقول العامة : (اطلع منها وهي تعمر) ، فالمقصود هنا مجرد الانصراف عن الموضوع ، وعدم التدخل فيه .

ولقد يعين على تبين المراد بالأمر الموجه إلى إبليس (اهبط منها) ـ أنه

اقترن فى آية الأعراف بما يفسر هذا المراد ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ ، و (الهبوط) حركة رأسية من أعلى إلى أدنى ، و(الخروج) حركة أفقية من مكان إلى آخر ، والجمع بين البعدين على المستوى المادى متناقض ، فلم يبق إلا المستوى الأخلاقى ، وهو الهبوط من قمة الطاعة إلى درك التمرد ، والخروج من حرم الرضوان إلى حمأة الفسوق والعصيان ، وذلك يمكن تفسير الهبوط بالخروج .

فأما أن يقال : إن الأرض أقل من السماء فقول لا موضع له ، لأن الكون كله خلق الله وصنعته ، وهو مجال لأمره سبحانه ، ولله الخلق والأمر ، والأماكن تشرف بأنها صنعة الخالق ، لا بمن تعلق بها من المخلوقات طائعاً أو عاصياً ، فاستوى بذلك الظرف والمظروف ، وقد يخص الله بعض خلقه ببعض الأماكن ، كما يخص بعض الأماكن ببعض خلقه ، وكل ذلك فى إطار الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

إن الله سبحانه لا يكره خلقه لذواتهم ، بل يكره منهم أفعالهم التى نهاهم عنها ، ويدعوهم إلى مزايلتها ، مزايلة لإبليس الذى افتضح أمره ، وتعرى من ملابسه ، وأغرقهم فى وساوسه . كما أن الله يدعوهم إلى فعل المأمورات حتى يحبهم ، ويزيد فى الإحسان إليهم ، فمن أطاع الله فقد ارتقى فى درجات الملأ الأعلى صعداً ، ومن عصا الله فقد ارتكس فى دركات العذاب حَدُراً ، وبئس المصير ، وهذا هو الأصل ، أو هى السنة التى عامل الله بها خلقه المكلفين بطاعته ، منذ كان التكليف .

الفصل الخامس

بين إبليس و آدم فى الجنة

يبدأ الفصل الثانى من الحوار فى قصة الخلق ، بعد افتضاح أمر إبليس ، وإعلانه السافر عن عداوته لآدم وذريته - يبدأ هذا الفصل بتوجيه الله لآدم أن يسكن هو وزوجه (حواء) الجنة ، وأول آية تحدثت عن هذا التوجيه هى آية الأعراف : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) ﴾ [الأعراف] .

ولا مناص من التسليم بأن آدم هو ابن الأرض ، وقد كانت حياته قبل الاصطفاء وبعد الاصطفاء على الأرض ، وقد اختار الله للزوجين بقعة رائعة من البقاع المثمرة ، توفر فيها الغذاء ، والكساء ، والماء والظل ، وسائر مقومات الحياة الرخية ، وقال له : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى (١١٩) ﴾ [طه] ، وكان لهذه الجنة (أو الحديقة) وظيفتان :

الأولى : أن يمارس فيها آدم أساسيات الرسالة التى اصطفاه الله لتبليغها إلى ذريته ، ولا سيما التكاليف الأخلاقية ، والتعاليم الدينية المتصلة بالدنيا والآخرة ، وهو ما يبدو متألقاً فى قصة ابنى آدم (هابيل وقابيل) فى سورة المائدة ، ولا ريب أن الولدين قد تلقيا عن أبيهما كل ما دار فى حوارهما من تعاليم كالتقوى والفجور ، والتوحيد والشرك ، والحلال والحرام والعدل والظلم ، والجنة والنار ، وفى هذه الجنة

الأرضية كانت الخطيئة التي سوف نتعرض لمناقشتها بعد قليل .

الثانية : أن هذه الجنة كانت بمثابة الملجأ الآمن الذي يعزل آدم وزوجه بعد الاصطفاء ـ عن سائر البشر ، خارج نطاق التكليف الديني ، ريثما تخلى الساحة الأرضية من وجودهم .. إذ إن الأرض لن تكون بعد ذلك إلا لآدم وذريته ، وهي بداية العهد الإنساني .

لقد خلق آدم من تراب الأرض ، ليعمر هذه الأرض ، وذلك قدر الله منذ شاء خلق البشر ، وهم أصول آدم .

وما أشبه ما حدث آنذاك ، حين عزل آدم وزوجه في الجنة ، بما حدث بعد ذلك إبان الطوفان ، فقد حمل نوح في فلكه من كلٍّ زوجين اثنين ، وأهله معه ثم تولى الطوفان تطهير الأرض من المشركين وآثارهم ، وقاد نوح الفُلْكَ حتى ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤)﴾ [هود] ، لقد كان بدء العهد الإنساني يتطلب إخلاء الأرض من المفسدين وسفاكي الدماء، وهو ما تولت القدرة الإلهية تنفيذه فترة سكنى آدم وزوجه في الجنة .

على أننا ينبغي ألا تفوتنا ملاحظة ظهور زوج لآدم ، لم يرد ذكرها قبل ذلك ، وهو ما يعني أن آدم كان متزوجاً قبل الاستخلاف والاصطفاء ، وذلك ما يدل عليه سياق القصة . يقول الشيخ رشيد رضا : (والآية تدل على أن آدم كان له زوج .. أي . امرأة . وليس في القرآن مثل ما في التوراة من أن الله تعالى ألقى على آدم سباتاً . انتزع في أثنائه ضلعاً من أضلاعه فخلق له منه حواء امرأته . وأنها سميت امرأة (لأنها من امرئ أخذت) . وما روي في هذا المعنى فهو مأخوذ من الإسرائيليات . وحديث أبي هريرة في الصحيحين : (فإن المرأة خلقت من ضلع ..) . على حد

﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ .. (٣٧)﴾ [الأنبياء] ، بدليل قوله : **(فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء) ..** أي: (لا تحاولوا تقويم النساء بالشدة) (المنار ٨/٣٠٨) .

وعلى أية حال فإن اختيار القرآن إبراز وجود الزوج كان على أعتاب الجنة ، ودخل الزوجان الجنة أو السكن الذي اختاره الله لهما ليبدأ حياة لا يدريان من ملامحها إلا ما أذن الله لهما بمعرفته ، فليست هذه الجنة نهاية المطاف ، ولكنها مرحلة سوف تشهد أحداثاً وفصولاً في قصة الحياة على هذه الأرض .

على أن من الضروري أن نشير هنا إلى أن دلالة لفظ : (الجنة) على (البستان الأرضي) هي الدلالة الحقيقية والأصلية ، وفي مقابلها دلالة اللفظ على (دار النعيم الأخروي) ، وهي دلالة مجازية ، جاء بها القرآن ، كما جاء بالدلالة الحقيقية ، ومن ذلك ما جاء في سورة (القلم) ، وهي السورة الثانية نزولاً ـ من قوله تعالى : ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨)﴾ [القلم] ، وهو أول استعمال للفظ (الجنة) في القرآن ، فجاء به على دلالته الأصلية (البستان) ، ثم ثنى بذكر جنة الآخرة في نفس السورة ، في قوله تعالى : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤)﴾ [القلم] ، وكأن القرآن قصد إلى إثارة المقابلة بين (جنة) الدنيا ، وهي عرضة للنوازل ، و (جنات النعيم) في الآخرة .. ينالها المتقون ، وذلك في فترة مبكرة جداً من نزول الوحي القرآني ، فسورة القلم هي ثاني سور القرآن نزولاً .

ونعود إلى الجنة وساكنيها اللذين زودهما ربهما بكل ما يلزمهما من تنبيهات وتحذيرات من حقد إبليس عليهما ، ولكن هيهات لآدم وزوجه ،

وهما حديثا عهد بالتكليف ، قليلا الخبرة بألاعيب العدو وأخلاقه الوضيعة .. هيهات لهما أن يقاوما ما واجها معه من إغراء : أثار شهيتهما ، وحرك غرائزهما .

لقد كان توجيه الله لهما : ﴿كُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وما أعظم ما أباح لهما من نعم ، وما منحهما من الحرية ، بالقياس إلى ما منعهما منه ، وجاء الشيطان يوسوس لهما ، صارفاً لهما عن نعم الله الوفيرة والمباحة ، مركزاً على تلك الشجرة المحظورة ، وهي معيار الطاعة والمعصية .. جاء الشيطان قائلاً لهما ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف] ، كانت القضية واضحة ، تتعلق بتوجيه الله سبحانه لهما ألا يأكلا من الشجرة .
وكان هدف الشيطان أن يأكلا من الشجرة وأن يفعلا ذلك بأي ثمن من الكذب والخداع ، فهو إذاً التصادم بين أمر الله وهدف الشيطان ، وقد بدأ يمارس مهمة الإغواء ، وينفذ وعيده الذي أعلنه ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩﴾ [الحجر] ، ولا ريب أن تلك الشجرة كانت مغرية ، تدعو إلى تجربة مذاقها ، وجاء إبليس بكلام كله كذب ، فربط بين الشجرة والارتقاء إلى درجة الملائكية ، أو تحقيق الخلود ، وكلا الأمرين مطمح لآدم وزوجه، لقد علما أن لله ملائكة مقربين ، مخلوقين من النور ، لهم عند الله الدرجات العلى ، كما علما أن كل نعيم لا محالة زائل بالموت ، كما فنيت أجيال قبلهما ، ولا مهرب من الموت إلا بتحقيق الخلود ، وما أعزه مطلباً ، وما أهونه وسيلة ، أن يأكلا من الشجرة .. مجرد مذاق ولن يكلفهما ذلك إلا أن يمدا أيديهما إلى ثمرها ، وزادهما تعلقاً بالدخول في هذه التجربة أن اللعين أخذ يقسم لهما بالله إنه يريد صالحهما ، وإنه

ناصح لهما ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۝٢١﴾ [الأعراف]، وهو كاذب في كلامه ، كاذب في قسمه ، ولكنهما لم يتصورا أن يوجد من يجرؤ على الكذب بهذه الصورة الفاجرة ، حتى ولو كان إبليس ، وغاب عنهما تماماً في هذه اللحظة تحذير الله لهما . ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۝١١٧﴾ [طه] وعلا صوت الشيطان في أذنيهما يدعوهما أن يأكلا من الشجرة . ﴿فَأَكَلاَ مِنْهَا﴾ في لحظة ذهول وضعف، وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير .. كانت الخطيئة التي جعلتهما من الظالمين .. يا لهول الموقف !!

أية شجرة هذه التي كان الاقتراب منها سبباً في تتابع تلك النتائج الهائلة في حياة الإنسان ؟!

لسنا نميل إلى التعويل على معرفة نوعها ، أو أثرها ، فكل ذلك لا يهم ، إذا ما قيس بموقف معصية الإله العظيم ، رغم التحذير والتذكير ، يقول الأستاذ سيد قطب : (ويسكت القرآن عن تحديد هذه الشجرة ، لأن تحديد جنسها لا يزيد شيئاً في حكمة حظرها ، مما يرجح أن الحظر في ذاته هو المقصود ، لقد أذن الله لهما بالمتاع الحلال ، ووصاهما بالامتناع عن المحظور ، ولا بد من محظور يتعلم منه هذا الجنس أن يقف عند حد ، وأن يدرب المركوز في طبعه من الإرادة التي يضبط بها رغباته وشهواته ، ويستعلي بها على هذه الرغبات والشهوات ، فيظل حاكماً لها .. لا محكوماً بها كالحيوان ، فهذه هي خاصية (الإنسان) التي يفترق بها عن الحيوان، ويتحقق بها فيه معنى (الإنسان) (الظلال ٨ / ١٢٩) .

وهكذا ـ رغم التحذير الإلهي ـ سقط الزوجان في شرك الغواية : ﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا

من ورق الجنّة .. (٢٢) ﴾ [الأعراف] ، وعبارة القرآن (فدلاهما بغرور) تعنى أنه أوقعهما فى الغرور والانخداع حين استدرجهما إلى الحضيض ، والتدلية : الإسقاط إلى الأسفل وتلك هى النتيجة الأخلاقية التى قصد إليها الشيطان : أن يكشف عن ضعف آدم وزوجه ، لأنهما ـ فى رأيه ـ لا يستحقان التكريم الذى خصهما الله به ، وبذلك لم يعد الشيطان وحده هو المتورط فى المعصية .. بل (استوى الماء والخشبة) ، فهما فى الخطيئة سواء ، غير أن وصف القرآن للآثار المادية للأكل من الشجرة يستأهل الوقوف عنده والتأمل فى واقعة المعقول .

لقد تناقل المفسرون رأياً واحداً عن السوأة ، وهى : العورة ، وقالوا ـ دون اختلاف ـ إن نتيجة الأكل من الشجرة كانت ظهور عورة كل منهما لنفسه ولصاحبه ، وكانا من قبل لا يريان ذلك لمواراة سوآتهما عنهما ، والغريب أن يقول صاحب المنار : (والأقرب عندى أن معنى ظهورهما لهما أن شهوة التناسل دبت فيهما بتأثير الأكل من الشجرة ، فنبهتهما إلى ما كان خفى عنهما من أمرها ، فخجلا من ظهورها ، وشعرا بالحاجة إلى سترها ، وشرعا يخصفان ، أى ، يلزقان ، أو يضعان ويربطان على أبدانهما من ورق الجنة) (المنار ٨/٣١١) .

وكل ما يقال فى هذه المسألة هو محض اجتهاد يسمح به أسلوب الآية ووصفها لما حدث . وعلى ذلك يجوز أن نجتهد فى فهمها انطلاقاً من الملاحظات الآتية :

١ ـ أن القرآن ذكر (السوأة) بالجمع مضافاً إلى مثنى ، وهو ما يعنى أن ما بدا منهما ليس عورتيهما .. بل هى عورات كثيرة ، ولو كانت العورة الغليظة هى المقصودة لقال النص الكريم (بدت لهما سوأتاهما) . لكن الجمع يوحى لنا بمعنى آخر .

٢ ـ افتراض أنهما فوجئا برؤية ما لم يكونا يريانه مخالفاً لمعنى الزوجية ، وسنة الله فيها ، وآراء المفسرين قائمة على افتراض أنهما أول زوجين فى تاريخ البشرية ، وهو أمر أثبتنا خلافه ، فقد كان الاتصال الجنسى بين الذكور والإناث ـ منذ ملايين السنين ـ بلا قيد أو شرط خلال العهد البشرى ، حيث لم يكن دين ولا تكليف .

٣ ـ أن آدم لم يكن يعيش في الجنة عارياً بدائياً ، وهو ما قرره القرآن فى قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا .. (٢٧) ﴾ [الأعراف] .

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ (٢٢) ﴾ [الأعراف] يؤكد أن الضمير فى (عليهما) لا يعود على (السوءات) ، وإلا لقال : (عليها) ، بل إن عائد الضمير هو (آدم وحواء) بشخصيهما ، والصورة كما تبدو لنا فى موقف الزوجين صورة هائلة :

فقد شعرا حين ذاقا الشجرة أنهما خالفا أمر ربهما ، وقد حذرهما من الشيطان تحذيراً صارماً ، ومعنى ذلك غضب الله عليهما ، وهو ما هيج مشاعرهما ، ووضعهما فى مواجهة عاقبة لا يحتملانها .

وركبهما الندم من هذا التعرى أمام الله ، فأخذا يحاولان التخبؤ والاستتار حياءً منه وخجلاً ، وذلك بأن يتخذا من ورق الجنة غطاء يسترهما ، وكأنهما يبيلان عليهما هذا الورق .

وبيْنا هما فى هذه الحال الرعيبة ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ، وكان هذا النداء بمثابة حبل الإنقاذ لهما فتعلقا به وقالا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾ [الأعراف]

وهذه الكلمات هي التي أشارت إليها الآية الكريمة : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾ [البقرة] .

وقد عبر القرآن عن الموقف كله بقوله : ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)﴾ [طه] .

وأرجع سبب الوقوع في الغواية إلى أنه لم يكن عامداً .. بل ناسياً : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾ [طه] .

ويمكن تفسير نسيان آدم بأنه داخل في مضمون الجهالة في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ .. (١٧)﴾ [النساء] .

وهو موقف يختلف عن موقف إبليس الذى علم السوء ، وفعله ، وأصر عليه ، ولذا استحق آدم وزوجه أن يتوب الله عليهما .

وعند هذا المقطع من تسلسل الأحداث اكتملت معادلة الحياة الدنيا بكل عناصرها : (الأمر - الوسوسة - المخالفة - الندم - المغفرة) ، فآن الأوان لنزول آدم إلى معترك الحياة الدنيا ، وقد ترسخت في عقله ونفسه تلك المعادلة ، بعد أن هيئت له الساحة ، وأخليت الأرض من المفسدين وسفاكي الدماء ، ولم يعد فيها سوى الإنسان الجديد ، (آدم : أبي الإنسان ، وحواء: أمه) في مواجهة إبليس عدوهما اللدود ، وقامت الحياة على هذا العداء المتبادل : ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)﴾ [الأعراف] .

ولسنا بحاجة إلى تكرار أن الأمر بالهبوط مرادف للأمر بالخروج .

الفصل السادس

اللغة والأسماء القديمة

الله

الملائكة - آدم - إبليس - الشيطان

الله

كان القرآن - ولا يزال - الوثيقة اللغوية التى نعتمد عليها فى معرفة الأسماء التى وردت فى قصة الخلق ، وما يتصل بها . وأقدم الأسماء على الإطلاق هو لفظ الجلالة (الله) ، فهو الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية ، والمفروض أنه قبل ظهور (الإنسان) - لم يكن البشر يعرفون شيئاً سوى ما تهيئه لهم طبيعة مرحلة النمو التى يعيشونها ، فقبل أن يكون العقل ، وقبل أن تتكون اللغة لم يكونوا يدركون شيئاً عن حقيقة الحياة . وطبيعة الوجود ، إلى أن كان اصطفاء (آدم) فعرفت الخليقة خالقها ، بدءا من معرفة آدم لربه ، وفى نفس الموقف برزت أسماء بعض المخلوقات : الملائكة - البشر - آدم - إبليس ، ولا ريب لدينا فى أنها أسماء قديمة ، استخدمت قبل أن تظهر العربية إلى الوجود ، وقد وردت هذه الأسماء فى كلام الله ضمن حديث القرآن عن قصة الخلق ، أولى قصص الوجود البشرى والإنسانى معاً .

ونحن لا نتصور أن هذه الأسماء كلمات مأخوذة عن العربية للتعبير

عن شخصيات القصة ، فقد كانت القصة قبل أن تكون اللغات بالشكل المعروف ، نوعاً وعدداً ، وقد عرفت تلك الشخصيات بهذه الأسماء التى جاءت فى كلام الله ، وهذا هو السر فى شيوعها فى كثير من اللغات الإنسانية بصور نطقية متقاربة . فلفظ الجلالة : (الله) معروف هكذا فى اللغات السامية القديمة ، ومنها العربية ، كما تعرفه اللغات الأوربية .

ولقد حاول الاشتقاقيون أن يردوا لفظ الجلالة (الله) إلى جذر اشتقاقى ، فقال كثير منهم بأنه مشتق من (ألهَ) بمعنى : فَزِعَ . أو بمعنى: تحير ، أو بمعنى : عبد ، أو بمعنى : أقام . وقال بعضهم : إنه من (وَلِه) بمعنى : أَحَبَّ ، وقال غيرهم : إنه من (لاه) بمعنى احتجب أو ارتفع .

وأغلق بعضهم باب الاشتقاق وقال بأنه غير مشتق .

وفريق ثالث قال : بأنه غير عربى ، فهو سريانى ـ أو عبرانى .

والأكثرون على أنه عربى .

والذى نراه أن ذلك كله خبط فى ظلماء مدلهمة لأن الله سبحانه أخبر عباده بأنه (الله) ، وطلب منهم أن يعبدوه ويوحدوه لأنه (الله) ، والخطاب هنا ليس عربياً لقوم عرب .. بل هو خطاب إلهى كونى صدر عن خالق الكون ، والإنسان ، واللغات ، فهو إذن ليس اسماً صاغته ألسنة المخلوقات .. بل تلقته هذه الألسنة من الملأ الأعلى علَماً على ذات المعبود بحق ، واستوعبته العربية ، كما استوعبته سائر اللغات التى تلقت رسالات السماء ، ونطقت به حسب قوانينها ، وتقاليدها ، وقدراتها النطقية . فلا ينبغى أن يدرج فى معجم العربية على أنه كلمة من كلماتها ..

بل على أن اللسان العربى نطقه هكذا كما لقنه ، وكما نطقه غير العرب ، وقد اخترع العبرانيون إلوهيم ، أو يهوه ، كما ورد إيل ، وإلّ ، ولكن يبقى (الله) ، وتتلاشى كل الاختراعات أو الواردات فلفظ الجلالة هو أصل الأسماء ، وأولها ، ومصدرها ، كما أنه مصدر اللغات والألسنة ، وصدق الله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. ﴾ (٢٢) [الروم] ، وهو القديم ، وما سواه محدث ، وهو قديم بذاته ، وباسمه قبل أن تكون اللغات .. بل قبل أن تكون الكائنات .

الملائكة

وأما عن (الملائكة) فهى كلمة إسلامية أيضاً .. لم تستخدم فى العربية قبل أن يرد ذكرها فى بداية الوحى ، فى سورة المدثر ، وهى رابع سور القرآن نزولاً ، وقد ردها اللغويون إلى الجذر (ألك) ، الذى اشتقت منه كلمة (مَألك) . ثم حدث قلب مكانى ، فصارت (مَلاك) ، ثم جمعت فصارت (ملائكة) . ولا دليل على استخدامها فى العربية قبل القرآن .

وأقطاب (الملائكة) ، وفى مقدمتهم (جبريل وعزرائيل) ، جاءت تسمياتهم مركبة ، وهى شائعة فى كثير من اللغات ، فكلمة (جبرائيل) جزؤها الأول (جبر) بمعنى (رجل) ، وكلمة (عزرائيل) جزؤها الأول (عزر) بمعنى (قوة) ، وهما مضافتان إلى لفظة (إيل) .. أى : الله ، وكان الأول يعنى (رجل الله) ، والثانى هو (قوة الله) ، وهى ترجمة متخيلة بقدر ما تسعه اللغة الإنسانية ، وإلا فليس فى الملائكة رجال أو نساء ، ولا يليق أن تحصر قوة الله فى ملك مخلوق واحد .. بل إن التجريد هنا غير لائق ، إذ إن القوة (ومنها - القوى) من أسماء الله وصفاته

الحسنى . وليست ملكا بعينه ، خاصة أن اختصاص توفى الأحياء مَعْزُوٌّ فى القرآن إلى الله سبحانه : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ .. (٤٢) ﴾ [الزمر] ، ومَعْزُوٌّ إلى رسل الله من الملائكة : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا .. (٦١) ﴾ [الأنعام] ، ومَعْزُوٌّ إلى ملك الموت ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ .. (١١) ﴾ [السجدة] .. أى : إن قوة الإماتة ليست محصورة فى ملك بعينه ، وعلى أية حال فإن القرآن لم يذكر من أسماء الملائكة سوى (جبريل وميكال) ، ولسنا مكلفين بترجمة معانى هذه الأسماء ، أو التعامل معها على أساس معانيها ، فالأسماء لا تعلل ، إنما هى كتل صوتية لا يلتفت إلى مكوناتها .

إن ذلك يعنى أن هذه التسميات كانت قبل اللغة العربية .. بل هى فعلاً قبل اللغات البشرية ، وأن ما حاول الاشتقاقيون أن يستخرجوه من المعانى فى ضوء الربط بين الاسم ، وجذره اللغوى المفترض ـ هو فى الحقيقة افتعال يقلب القضية رأسا على عقب !!

آدم

لقد حاول الاشتقاقيون أن يجدوا لآدم أصلاً فى (أديم الأرض) الذى خلق منه ، والحق ـ فى نظرنا ـ أن أديم الأرض اشتق من (آدم) الذى يعنى (الإنسان) بالمعنى العام فى كثير من اللغات ، وكان مرتبطا دائما بالتراب ، والطين ، فأطلق على مادته التى خلق منها : أديم ، على سبيل الاشتقاق من الجوامد ، وهو مجاز مرسل علاقته الأصلية والفرعية ، إن صح التصور .

ويمكن أيضاً أن يقال : إن (الأدم) بمعنى : الجلد .. مشتق كذلك من

(آدم) ، ويطلق على الجلد : البشرة ، وللبشرة علاقة لفظية بالكلمة القديمة الأولى فى ملحمة الخلق ، كلمة (بشر) التى تفردت بها العربية ـ كما سبق أن قلنا .

إبليس

أما كلمة (إبليس) فهى موجودة فى لغات قديمة كاليونانية (ديابولوس) ، وهى كلمة تبدو مركبة من جزئين : (ديا + بولوس) ، وقد أخذت اللغات الأوروبية ، باعتبارها أحدث من اليونانية ـ الجزء الأول من التركيب - (ديا) ، وتطلقتها (ديابل Diable) ، وأخذت العربية وأخواتها الساميات الجزء الثانى من التركيب كما هو (إبليس) مع تنوع فى طريقة النطق ، هذا ما قرره محقق الزينة .

ولا يبعد فى تقديرنا أن تكون الكلمة من عطاء القرآن للعربية .. وهى أقدم اللغات السامية . فلم نعثر على ما يشهد بوجودها قبل الإسلام فى لسان العرب .. بل إن الكلمة ليس لها مقابل لفظى أو دلالى فى العبرية ، وقد وردت لأول مرة فى القرآن فى سورة (ص) .. أى : فى سياق قصة آدم ، وذكر المعجم الوسيط أن جمع الكلمة : أبالس ، وأبالسة .

أما .. كيف عالج أهل اللغة لفظها ومعناها ؟!

فقد قال اللغويون العرب : إنه على وزن إفعيل ، مشتق من أبلس الرجل : إذا انقطع ولم تكن له حجة ، ويقال : هو من يئس . قالوا فى تفسير قوله تعالى ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ ، قال : يائسون . قال ابن عباس : (لما لعنه الله أبلس من رحمته) . وقال الفراء : (مبلسون : يعنى : فى العذاب) ، وقال : (المبلس : اليائس من النجاة والقانط ، وهو

أيضا المنقطع الحجة ..) .

ويقال أيضا : أبلس ، إذا سكت ولم يُحرِ جوابا .. ، ويقال : المُبْلِسُ : الحزين النادم ، وقد أبلس الرجل إبلاسا ، أى : اكتأب وحزن ، وفى قوله تعالى ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أى : يندمون ، ويكتئبون وييأسون ، وقال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ .. قال : الإبلاس : الفضيحة ، وقال غيره : الإبلاس : الخشوع .. ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ : قال : خاشعون، وقال غيره : المبلس : المتروك المخذول .

قال صاحب الزينة : (وكل هذه المعانى قد جاءت فى الإبلاس ، وهى قريبة بعضها من بعض ، فكان إبليس هو مأخوذ من ذلك ، لأنه افتضح بعصيانه ، فيئس من رحمة الله ، وحزن وندم ، فصار مخذولا متروكا ، ذليلا منقطع الحجة ، ساكتا ، فقيل له : إبليس) (الزينة ١/١٩٢-١٩٣) .

هذه ـ كما قلنا رؤية الاشتقاقيين العرب ، ويكفى أن نلاحظ خطأ استنباطها حين رأى صاحب الزينة أنه قيل له : (إبليس) بعد أن حدث له ما حدث ، على حين أن (إبليس) كان قبل أن يحدث شيء من ذلك !! وإن أطلق عليه بعضهم قبل افتضاحه (عزازيل) !! ولم يثبت ذلك !!

ويرى علماء الغرب أن الكلمة دخلت محرّفة فى العربية من اليونانية : (ديابولوس) ، وجاء فى المعجم الكبير ١/١٦١ : أن العرب حذفت (ديا) فى أول الكلمة ، وتوصلوا للنطق بالساكن بزيادة الألف فى أوله ، وأنه لم يرد ذكره فى المعاجم الآرامية والسريانية .

يقول محقق الزينة : (فقد يكون العرب أخذته من اليونانية مباشرة باتصالهم بنصارى العرب الموالين للكنيسة البيزنطية ، كما أشار إليه

جفرى) (الزينة : السابق ـ هامش) .

ونقول بعد هذا كله ما سبق أن قلناه من أن ذلك افتعال يقلب القضية رأسا على عقب ، والذى نراه هو أن اللفظ قديم ، مستمد أساسا من علم الله بالقضية ووقائعها ، وعناصرها ، وأن هذه الألفاظ دخلت اللغات الإنسانية عن طريق الأديان ، والكتب المقدسة ، بأية لغة كانت هذه الكتب ، وقد يتفق هذا مع ما قاله أبو عبيدة من أن اللفظ اسم أعجمى ، غير أن الأعجمية تعنى فى اصطلاح العلماء : أن اللفظ (إبليس) مستمد من لغة غير عربية ، وهو ما نحاول هنا أن ننفيه ، فاللفظ مستمد من علم الله ، وهو اسم لذلك (المخلوق الملعون) ، ويكفى أن نتعامل معه بهذا الاعتبار ، دون حاجة إلى تأصيله فى العربية ، أو تحليل مادته اللغوية ، وإرجاعه إلى جذر اشتقاقى ، فذلك كله فى نظرنا تلفيق لا يفيد اللغة شيئا ، مهما فسر (الإبلاس) بما ذكر من المعانى السابقة ، وقد حدث للكلمة فى الاستعمال العربى بعض النضج ، فجمعت ، واشتق منها (الأبلسة) .

الشيطان

أما كلمة (شيطان) ، وجمعها : شياطين فهى عربية قديمة ، وقد تكون من الأصل : شطن ، بمعنى البعد ، فالكلمة بوزن فيعال ، والنون أصلية ، وقد تكون من الأصل : شيط ، شاط ، أى : احترق من الغضب ، فيكون بوزن فعلان ، نحو : حيران ، وهيمان ، فالنون زائدة (الزينة ١٧٩-١٨٠) .

ويطلق على كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب : شيطان ، ويقول العرب لكل منفرد بقوته وجلده ، قوى مستقل بنفسه ، منهمك فى

أمره : شيطان ، قال جرير :

أيام يدعونني الشيطان من غزلي   وكُنّ يهوينني إذ كنت شيطانا

أى : إن النساء يدعونه (شيطاناً) لتفرده بأفعال الشيان من الغزل وغيره .

ويطلق اسم (شيطان) على الحية خفيفة الجسم قبيحة المنظر ، وهو أحد وجهي التفسير في قوله تعالى : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الصافات] انظر (الزينة / ١٨١) .

ومن صفات الشيطان : (المارد) ، وهو في قوله تعالى : ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الصافات] ، وهو خارج عن الطاعة ، ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ .. ﴿١١٨﴾ ﴾ [النساء].

ومن صفاته (الرجيم) في قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل] ، والرجيم هو المرجوم . كاللعين أى : (الملعون) ، وهو أيضاً كذلك بمقتضى الخطاب الأول إليه : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [ص] .

ومن صفات الشيطان (الغول) ، وهو ساحر الجن ، وكذلك (السعلاة) وهي أخبث من الغول وأعظمها سحراً .

ومن صفاته (الوسواس الخناس) ، والوسواس هو الذي يلقي بوسوسته في القلوب ، حتى يختبل الإنسان ، والخناس هو الذي يهرب عند ذكر الله سبحانه .

ومن صفاته (الغَرور) لم يوصف بذلك غير الشيطان ، وهو وصف

على فعول ، مثل : ظلوم وحقود ونؤوم ـ صفات مبالغة ، وقد يفسر (الطيف) أو (الطائف) بأن المقصود به الشيطان ، وكذلك (الخيال) ، ويذكر صاحب الزينة أن من الشياطين جنساً يقال له :

(الخَبَل) ، وهم الذين يُخَبِّلون الناس ويؤذونهم ، وقد يدفعونهم إلى الجنون .. يقال : رجل مُخَبَّل : إذا كان به مس من الجن ، والخبال هو الجنون واختلاط العقل .

ومن أسماء الشيطان أيضاً (الطاغوت) ، وهو وارد في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [النساء] وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ .. ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة].

ومن أجناس الشياطين : العفريت ، وجمعه : عفاريت ، وهو وارد في القرآن : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [النمل] ، والعفريت من كل شيء : (المبالغ ، ويقال : فلان عِفْرِيَةٌ نِفْرِيَة ، وعُفَارِية ، وهو الموثق الخلق الشديد المصحَّح) (الزينة / ١٩١) .

ولم يذكر صاحب الزينة من صفات الشيطان : القرين ، وجمعه : قرناء ، وقد وردت الكلمتان في آي القرآن ، الأولى في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزخرف] ، والثانية في قوله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [فصلت] ، كما ورد ذكر (القرين) في سورة (ق) ، في الآيتين : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ق] وقوله : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ق].

وورد ذكر القرين أيضاً في سورة النساء ، في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) ﴾ [النساء] .

وواضح أن وظيفة القرين بمقتضى الآيات شر كل الشر ، غير أن أثر وجود القرين انحصر في الغفلة عن ذكر الله ، أو محاولة الإغفال ، والمشاغلة بالدنيا ، والعكوف عليها ، دون تجاوز ذلك إلى اختصاص الشيطان الأكبر (إبليس) الذي يحرص على أن يحقق من وراء إغوائه الشرك بالله ، فهو يترك أسباب الشرك من المعاصي ، ومقدماته من الآثام ـ لمساعديه من شياطين الجن والإنس ، حتى إذا شارف الإنسان حدود الشرك تحرك الملعون بصوته وخيله ورجله ليتم مهمته الكبرى ، ويشهد انتصار وعيده ، وتفوق الغواية على الهداية .

وجاء في الآثار ذكر شيطان اسمه (خنزب) ، فذلك في حديث مرفوع عن ابن مسعود : أن للشيطان لمة للإيعاد بالشر ، والتكذيب بالحق ، والقنوط من الخير ، ويبدو أن هذا الشيطان متخصص في الحيلولة بين المؤمن وصلاته . (زاد المعاد ٢ / ٣٩) .

إبليس في القرآن

وقد ورد ذكر إبليس في القرآن إحدى عشرة مرة ، منها عشر مرات في مكة ، ومرة واحدة في المدينة في سورة البقرة .

ويلاحظ أن مواضع ذكره لم تتجاوز قصة آدم في تسع مرات ، وجاء ذكره مرتين في غير القصة ، إحداهما في سورة الشعراء ، في سياق يتحدث عن المشركين ، ممن اتخذوا من دون الله آلهة ، قال : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) ﴾ [الشعراء] ، وموضوع

الآية جنود إبليس ، لا إبليس ذاته ، وإن كان إمام أهل النار ، والأخرى في سورة سبأ في سياق يتحدث عن موقفهم من دعوة الله ، فأرسل الله عليهم سيل العرم ، وسجل ذلك عليهم فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) ﴾ [سبأ] ، وواضح أن الواقعة تشهد بأن إبليس ماثل بشخصه في الموقف ، فقد حقق وعيده حين قعد لبني آدم على طريق الإسلام : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ـ فدفعهم إلى اتخاذ الشركاء ، وأضلهم فكانوا من الغاوين .

فإذا لاحظنا أن إبليس لم يذكر في وحي المدينة سوى مرة واحدة ، في سورة البقرة ـ وأن أكثر ما ذكر كان في الفترة المكية ، وفي قصة آدم وحدها ـ أدركنا أن اسم (إبليس) ليس علماً على جنس من المخلوقات الخفية .. بل هو اسم ذات تفردت بقيادة الخلق إلى الشرك ، وهو الذي مثل الدور الأكبر في قصة بداية العهد الإنساني ، وقد كان لذكره في مكة مناسبة ضرورية ، حيث كثر أولياؤه من كفار مكة ، وعتاة الجاهلية ، فكان التركيز عليه لإبراز دوره ، والتنفير منه .

فأما في المدينة فقد برزت على الساحة أحداث أخرى ، حين كثر أنصار الحق ، وقامت دولته ، وصرحت المواجهة بين جند الله ، وأعدائه ، فناسب أن يقوم بمهمته معه ذريته من كبار الشياطين وصغارهم ، وهم الذين تم التعريف بهم وبشرورهم في كثير من آيات الوحي المكي والمدني ، على سواء .

وقد أشار القرآن إلى أن لإبليس ذرية ، فقال : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] ، ولا ندري كيف تكاثرت الشياطين من ذرية إبليس .. اللهم إلا إذا أخذنا بما ذكره صاحب

المستطرف من أن إبليس (لا يلد ، بل يلقح كالطير ويبيض ويفرخ . قيل : إنه يخرج من كل بيضة ستون ألف شيطان) (المستطرف/٢ - ٤٠٢) . فإذا استبعدنا هذا من قياس التكاثر بين الشياطين على غرار تكاثر الطيور ، والحشرات ، فقد نتصور أن طبيعة إبليس النارية تقبل التكاثر بما يشبه الانقسام ، فيحدث عند احتدام حقده تولد الشرر . فيكون من كل شرارة شيطان وليد ، يكبر برعاية أبيه ، ويبقى معه إلى أجله المسمى .

وبذلك يبرز دور الشياطين إلى جانب دور (إبليس) زعيمهم الأكبر ، وأبيهم اللعين ، ليتولوا إضلال المؤمنين عن طريق الاستقامة ، ودفعهم إلى المعاصي ، من الكبائر والصغائر ، فمن الواضح إذاً أن كلمة (إبليس) علم أطلق على ذلك الشيطان الأكبر دون ذريته من الشياطين والمردة ، ولهذا لم يَتَسَمَّ باسمه أحد غيره ، فلم يرد في الاستعمال (إبليس الإنس)، كما ورد (شياطين الإنس) ، وهم الذين نفخ إبليس في قلوبهم فصاروا له جنداً .

وربما نستطيع أن نتصور واقع العمل بين إبليس وذريته وجنوده من الشياطين ، في ضوء دلالة النصوص القرآنية بحيث يتولى إبليس محاربة بني آدم ليصدهم عن الإسلام ، ويغرقهم في الشرك ، وفي كل ما يؤدي إليه من قول أو عمل ، وتلك مهمة رهيبة تتصل بالمبادئ والعقائد والأديان ، على أن يتولى بقية الشياطين مهمات دون ذلك ، في مجال الرذيلة والشر .. كلٌّ حسب اقتداره على الإغواء والإضلال . وإشاعة الفساد ، فمنهم الذكي والغبي ، والنابه والكسول ، ولسوف تزيد الصورة وضوحاً عند استعراض النصوص الواردة بشأن (الشيطان) .

على أن (إبليس) وصف في القرآن بأنه (شيطان) ، وهو ما يشي به

مثلاً .. قوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) ﴾ [العنكبوت] ، فهذه المهمة الضخمة ، المتمثلة في صرف هؤلاء الكفرة عن الإيمان ، وصدهم عن التوحيد ـ هي مهمة هائلة لا يقدر عليها سوى (إبليس) ذاته ، الذي وصف بأنه (الشيطان) ـ هكذا معرفاً (بأل) العهدية ، أي : الشيطان الذي تعرفون ، وتذكرون قصته ووعيده ، والموقف هنا مع عاد وثمود ـ الذين عاشوا في الفترة ما بين نوح وإبراهيم .

وأوضح من ذلك دلالة على أن المراد (بالشيطان) هو (إبليس) – قوله تعالى في سورة (يس) : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) ﴾ [يس]، إننا نستطيع أن نطردها قاعدة في كل شيطان معرف (بأل) ، فهو (إبليس) ، ويعتمد في ذلك أيضا على دلالة السياق ، فأما إذا جاء اللفظ منكرا فإننا نرجح أن يكون المراد به واحداً ، فالمراد به واحد من جنس الشياطين .

الشيطان في القرآن

ورد ذكر الشيطان في القرآن مفرداً ، وجمعاً في سياقات توحي باختلاف المعنى المقصود منه . وقد جاء مفرداً في التنزيل المكي ثلاثاً وثلاثين مرة ، وجاء مفردا في التنزيل المدني ثمانياً وعشرين مرة .

أما وروده جمعاً ـ فقد جاء في التنزيل المكي خمس عشرة مرة ، وفي التنزيل المدني ثلاث مرات .

ولقد نستطيع أن نميز بعض وجوه المعنى المراد من خلال ملاحظة ورود الكلمة معرفة أو منكرة ـ كما سبق أن قلنا ، فإذا جاء معرفاً :

(الشيطان) فهو (إبليس) ، وإذا جاء منكراً (شيطان) فهو واحد من جنس الشياطين (من ذرية إبليس) ، وقد جاء اللفظ منكراً (شيطان) فعلا فى خمسة مواضع هى على التوالى بحسب النزول :

السورة السابعة (التكوير) : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) ﴾ [التكوير] مكية.

السورة الرابعة والخمسون (الحجر) : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) ﴾ [الحجر] مكية .

السورة السادسة والخمسون (الصافات) : ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) ﴾ [الصافات] مكية .

السورة الثانية والستون (الزخرف) : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا .. (٣٦) ﴾ [الزخرف] مكية .

السورة الثالثة والتسعون (النساء) : ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) ﴾ [النساء] مدنية .

ويلاحظ أولاً أن الآية فى سورة التكوير هى أولى الآيات التى تعرضت لذكر الشيطان فى القرآن ، فجاءت به منكراً ، وقد كانت العرب تعرف (الشيطان) ، وتراه فى أطياف الشعراء ، فجاء القرآن لينفي أن تكون آياته كأبيات الشعر من طائف الشيطان الذى عرفوه : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) ﴾ [التكوير]

ونحسب أن وصف الشيطان هنا بأنه (رجيم) هو الجديد فى هذه البداية ، لتعريف المخاطبين بأن شأن الشيطان أن يرجم بالحجارة ، وهو ما لم يعرفه أهل الجاهلية ، وكأنه يقول لهم : إن ما يمليه الشيطان على عقل الشاعر لا يحمل هداية ، ولا يدعو إلى خير ، فهو عكس ما يتلوه

عليكم محمد ﷺ : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) ﴾ [التكوير] . وقد صمت الوحي بعد ذلك عن ذكر الشيطان ـ منكراً ومعرفاً ـ طيلة ثلاثين سورة ـ حتى جاء ذكر (إبليس) فى سورة (ص) لأول مرة ، وعرض ذكر (الشيطان) مفرداً بعيداً عن قصة آدم ، أي : فى إطار مستقل ، وهو فى قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ﴾ [ص] ، وجاء ذكره جمعاً فى قوله تعالى : ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) ﴾ [ص] . والآيتان تتحدثان عن أمور تتصل بقصتى نبيين كريمين .. أحدهما : أيوب ، الذى دعا ربه أن يخلصه من وساوس الشيطان أثناء مرضه وابتلائه . والثانى : سليمان الذى سخر الله له الجن والشياطين فى أمور تتصل بما وهبه الله من ملك لم يوهب لأحد بعده ، وحين تأتى قصة آدم فى آخر سورة (ص) يذكر (إبليس) لأول مرة ، وكأنه لا علاقة له بالشيطان ، فلكل منهما مجاله ، ولكن الوحي ينزل بعد ذلك مباشرة بسورة الأعراف (التاسعة والثلاثين) ، فيجمع بين إبليس والشيطان فى قصة آدم ، ويطابق بينهما، ولو أننا قرأنا الآيات حتى قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ لَشَعَرْنا أن كلمة (الشيطان) فى هذا السياق تأتى فى موقع الوصف ، أي : ذلك الشرير المجرم ، وملحظ الوصفية هنا أظهر من ملحظ الاسمية .

ولما كان كل من إبليس والشيطان منتمين إلى خليقة الجن ، فقد نزلت في الأعراف آية تذكر (الجن) هى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ .. (١٧٩) ﴾ [الأعراف] ، وجاء بعدها مباشرة سورة الجن (الأربعون نزولاً) لإكمال الصورة بكل مكوناتها ، وليتعرف أهل القرآن على أجزاء ذلك العالم الخفي .. ذلك العالم الذي وصف فى سورة الأعراف بأن له (قبيلاً) ، فقال : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) ﴾ [الأعراف] . وبذلك اكتمل التعريف

بعالم الجن ـ عالم الخفاء .

ولقد تدلنا الآيات الخمس السابقة التى تذكر الشيطان ـ منكراً ـ على الصفات اللصيقة بشخصه ، وهى أنه رجيم مارد مريد ، وكأن هذه هى الحد الأدنى لما يذم به أى شيطان . فأما أكثر الصفات فقد ذكرتها الآيات الأخرى التى ورد فيها ذكر (الشيطان) معرفا بأداة التعريف ، أو مقترناً بصفات تزيد صورته جلاءً وقبحاً .

غير أننا نقرر هنا أن متابعتنا للآيات الكريمة فى ستة وخمسين موضعاً أكدت لنا أن المراد بالشيطان معرفاً ـ فى أكثرها ـ هو أبليس . وقد أثبتت له النصوص الصفات التالية :

– فهو موسوس فتان عدو مبين يسلخ الإنسان من آيات ربه ، ويزيده تعرية . (الأعراف) .

– وهو عدو مبين متأله يريد من بنى آدم أن يعبدوه . (يس) .

– وهو نذل يخذل من يصادقه ، ولا تؤمن موالاته . (الفرقان , مريم).

– وهو يدفع حزبه إلى سعير جهنم . (فاطر) .

– وهو كذاب مخادع فاجر لا يخجل من كذبه . (طه) .

– وهو يزين الأعمال القبيحة لتبدو جميلة ، حتى يضل الأفراد والأمم . (العنكبوت / النمل / النحل) .

– وهو يدفع إلى الجريمة والقتل بحكم عدائه للقاتل والمقتول . (القصص) .

– وهو كفور بنعمة ربه ، لا يملك تحقيق ما يعد به ، سوى الغرور . (الإسراء) .

– وهو يدفع الناس ليكيد بعضهم لبعض ، حتى الإخوة . (يوسف) .

– وهو يلقى بالغفلة على العقول لتنسى ذكر الله . (يوسف / الكهف) .

– وهو يقسى القلوب ، ويغشى على العقول ، ويضل عن ذكر الله عند الأكل . (الأنعام) .

– وهو يقود الأبناء على آثار آبائهم من أهل النار . (لقمان) .

– وهو يحتل فراغ النفوس ، وينزغ بوسوسته فى العقول . (فصلت) .

– وهو يصد عن توحيد الله . (الزخرف) .

– وهو منافق وقح ، يعد ثم يخلف فى تبجح . (إبراهيم) .

– وهو يعد بالفقر ، ويأمر بالفحشاء والمنكر ، ويتخبط بنى آدم . (البقرة / النور) .

– وهو وراء ظاهرة الهرب من الميدان ، وهو يزرع الخوف فى نفوس أوليائه . (آل عمران) .

– وهو وراء الموبقات كالخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، ليثير العداوة بين الناس . (المائدة) .

– وهو قرين السوء ، بعيد الإضلال ، ضعيف الكيد ، لا يعصم من اتباعه إلا فضل الله . (النساء) .

– ولايته خسران ، ووعده غرور . (ق) .

– وهو فتنة لمرضى القلوب قساتها . (الحج) .

– وهو قائد المرتدين على أدبارهم ، يسول لهم ارتدادهم . (محمد) .

– وهو يوقع الإنسان فى الكفر ثم يتخلى عنه ويتبرأ منه بدعوى

الخوف من الله . (الحشر) .

– وهو وراء التناجي بالإثم والعدوان والمعاصي ، ووراء خسارة حزبه. (المجادلة) .

فهذا عن صفات (الشيطان) في القرآن ، سواء أريد به (إبليس) بذاته ، أم كان المقصود جندياً من جنوده ، أو شرارة من ذريته ، وفي كما رأينا صفات تغطي حياة بني آدم ، في كل أحوالهم .. الدنيوية والأخروية.. وقد رجحنا أن يكون المراد بالشيطان في هذه النصوص (إبليس) ما دام اللفظ معرّفاً .

فأما عن ورود اللفظ مجموعاً : (شياطين) ـ فإن الصورة تختلف ، لأن النشاط الشيطاني سوف يستخدم جماعات كثيرة في تنفيذ مخططاته على مستوى جماعي . ويمكن أن نميز في استعمال الكلمة ما بين معرف بأل ـ ومعرف بالإضافة .

ونبادر إلى تسجيل ملاحظة هي أن استعمال الكلمة مجموعة جاء في الوحي المكي في خمسة عشر موضعاً ، وجاء في الوحي المدني في ثلاثة مواضع .

فالشياطين في المرحلة المكية :

– أولياء للذين لا يؤمنون . (الاعراف) .

– وهم محشورون يوم القيامة مع المكذبين . (مريم) .

– وهم يدفعون الكافرين إلى المعاصي . (مريم) .

– وهم يتنزلون على الكذابين ، لان أكثرهم كاذبون . (الشعراء) .

– وهم يحاولون أن يستهووا المهتدين . (الانعام) .

– ومنهم شياطين من الإنس ، كما أن منهم شياطين من الجن. (الانعام).

– وهم وراء الجدل في شريعة الله . (الأنعام) .

– وهم إخوان المبذرين . (الإسراء) .

– ولهم همزات ينبغي الاستعاذة بالله منها . (المؤمنون) .

– وقد أعد الله لهم رجوماً في الدنيا من نجوم السماء . (الملك) .

وفي المرحلة المدنية :

– هم وراء ظاهرة النفاق في مجتمع المدينة . (البقرة) .

– وهم كذلك وراء انتشار ظاهرة السحر الذي لا يعرفه إلا كافر . (البقرة) .

ولا مجال لتصور إنحسار نشاطهم في المدينة ، فإن ما جاء في القرآن صادق الدلالة على ما يراد به ، في كل مكان وفي كل زمان ، غير أن الصورتين اللتين سجلهما الوحي عن النشاط الشيطاني في المدينة لم يكن لهما مكان في مكة ، وإنما انتشرتا في المدينة ، وهما النفاق والسحر ، وكلاهما بسبب من الكفر .. بل هما أشد الوان الكفر . وما زالت المجتمعات الإسلامية تعج بمواكب المنافقين وأحزابهم وطوائفهم ، وما زالت دولة السحر قائمة ، حتى في معاقل الكبار ومضاجعهم .. تساندهم جماعات من المتاجرين بالدين والشعوذة ، أو من الاغبياء ، أدعياء العلم بالدين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وهؤلاء هم (شياطين الإنس) الذين عادوا الأنبياء . كما قال سبحانه : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن . . ﴾ (١١٢) [الانعام] .

وحين يتقمص (الإنسان) وظيفة الشيطان ، فإنه يكون أخبث طينة ،

وأبشع كيداً ، وأعظم إفساداً من الجن وشياطينهم ، وقد شهد عصرنا أجيالاً من هؤلاء الشياطين .. فى شكل مفكرين ، وساسة وحكام ، وأذناب، وطواغيت و (هلافيت) - إن صح التعبير - وقد جمعوا فى ذواتهم صفات الشيطان الجنى ، وأضافوا إليها أخبث صفات الإنس ، فكانوا مزيجاً من الشرور المرئية وغير المرئية .

كما شهد عصرنا من فنون هؤلاء الشياطين أهوالاً تزيف صورة الحق، فإذا هو باطل يخدع العقول ، ويفنى الأعمار فى متابعته والتعلق به .

نعم ؛ شهد عصرنا ذلك الصراع من أجل احتلال الفضاء ، وشحنه بالموبقات ، ونشر الفجور بكل وسائل الإغراء والاستدراج ، تحت شعارات ظاهرها فيه الرحمة ، وباطنها من قبله العذاب ، وهى شعارات (مصالح الجماهير) و (خدمة الشعب) و (عولمة الثقافة) ، وغير ذلك من دعاوى الباطل ، ولغات (شياطين الإنس) ، والمضمون الوحيد هو الجنس ، والجنس وحده ، حتى يذهل الإنسان عن غايته ، ويفقد اتصاله بهدفه ، ويبقى مجرد متفرج أبله على ألعاب الشياطين .

أما التقدم ، والحضارة ، والعدالة ، والكرامة ، والقوة ، والدين ، والنصر على العدو ، والإعداد للمواجهة المحتومة - فكل ذلك كلام أجوف، لا قيمة له ، ولا مضمون .. يكفى أن ننام على أهازيج السلام ، وأن نستسلم لأحلام اليقظة والمنام ، بعيداً عن الحركة الناشطة ، والعمل الإيجابى ، والبناء الأخلاقى ..

إنها مراقص الشيطان ، ونوادى الأبالسة ، وملاعب الجنَّة ، وقنوات الاتصال بين أعداء الله من الشياطين الملاعين ..

تأملات فى المسألة الخَلْقية

على قمة عالية من قمم جبال الألب - وقفت إلى جوار شجرة من الأشجار العتيقة أنظر إلى السهول المنبسطة ، أسفل الجبال ، ثم أتنزه بعينى وراء الأحراش ، والقمم المواجهة ، تارة أهبط ، وتارة أصعد ، وهى متنزه لا يتذوقها إلا من سافر إلى تلك الأصقاع .

كنت فى رحلة إلى سويسرا ، لأعالج ما ألمَّ بعينى من قصور ، أشار بذلك الأطباء المعالجون فى مصر .

وكانت رحلتى إلى جبال الألب وعداً من أحد الأصدقاء ، صحبنا وهو يصعد بنا الأعالى ، ويجوز المنعطفات الثعبانية الخطرة ، حتى استقربنا على منطقة منبسطة ، بنى فوقها أحد المعاهد الرياضية .

وبينا أنا ساهم فى متابعة المناظر الخلابة ، وما صنعته يد الإنسان من مباهج ممتعة للزائرين - وقعت عينى على ورقة شجرة تتقاذفها دفعات النسائم اللطيفة ، فتجعلها ترسم خطا متعرجا أثناء هبوطها إلى أسفل الوادى .. وقد تدور دورات حلزونية ، حسب اتجاه الرياح وسرعتها .

ولمعت فى ذهنى لحظتئذ آية من آيات القرآن ، ملأت الموقف كله ، وشغلت المناقشة التى سرعان ما شدت إليها بعد ذلك كل الرفاق على قمة الجبل وهى الآية التاسعة والخمسون من سورة الأنعام : ﴿ وعنده

مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ .

قرأت الآية وعينى تتابع الورقة الطائرة عبر المسافة الهاوية ، وتجلت لعقلى حقيقة الرحلة التى تقطعها الورقة فى سقوطها .. إنها موضوع من موضوعات علم الله ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ !!

أهنالك فى الكون كله أسمى جلالا من علم الله ؟!

إن بناء الورقة تم بعلم الله وأمره ، ونسيجها المحكم هو ثمرة هذا العلم ، وانفصالها عن أمها كان معلوما لخالقها ، وطريقها ليس طريق السقوط إلى هاوية العدم (مع أن ذلك هو الظاهر) ، بل هو سقوط سوف يتبعه صعود ، فهى قد انفصلت للقيام بمهمة إلهية .

إن هذه الورقة فى طريقها إلى تربة الأرض ، لكى تتحد بمكوناتها ، وتندمج فى جزئياتها ، وتصبح ذراتها غذاء لما تخرجه الأرض من نبات وشجر ، ومعنى ذلك أن عناصر الورقة قد تعود من خلال التفاعل فى رحلة أخرى لتصبح عنصرا من عناصر غُصْن باسق ، أو ثمر شهىّ ، يطعمه إنسان ، فيصير به قويا ، ويزيد فيعطى نسلا فتيا ، وكل ذلك من المقومات الترابية للورقة ، التى علم الله دورتها الأبدية ودورة كل ورقة أو حبة مخلوقة على وجه الأرض ، وكل ذرة سابحة فى جو السماء . وبهذا يستمد المخلوق شرف وجوده ، إنه موضوع من موضوعات علم الله ، مهما ضؤل حجمه ، وقل شأنه فى مرأى العين .

كل ما فى البر والبحر ، وكل ما يحمله الشجر من ورق ، وما يعطى

النبات من حب ، وكل رطب ويابس ـ كل ذلك مدون فى كتاب مبين ، كما عبرت الآية .

وقد عبر القرآن عن محتوى الأرض فى قوله تعالى ﴿ وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام ﴾ وأقوات الأرض هى قوام وجودها باعتبارها معينا يزود نفسه بنفسه ، ويخرج من جوفه كل موجود على سطحه ، ثم يستعيده إلى حين ، ويهيئه لرحلة أخرى ، هى فى تقدير الله دورة أخرى من دورات الخلق الإلهى . فكل ذرة من ذرات الأرض هى فى حساب الاحتمالات إنسان أو حيوان أو طير ، أو حشَر ، من كل مادق وجل من خلق الله

والهندسة التى أبدعت هذا الخلق هى أدق إحكاما من كل ما عرفه الإنسان من إبداع حضارى .. أى : إن تكوين أى مخلوق ، حتى لو كان ورقة شجرة ، هو فى إحكامه أدق ألف مرة من إحكام أى اختراع للإنسان (طائرة كان أو صاروخا مثلا) .

وهذا هو مفهوم التحدى الذى جاءت به الآية ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ﴾ لأن تكوين الذبابة خلق متكامل ، مستقل عن أى مؤثر خارجى ، وقس على ذلك ما هو أدق كالنملة ، والميكروب ، إننا نعرف عن يقين علمى أن أقدامنا حين تطأ الأرض تدوس ملايين الكائنات الحية ، وربما مليارات الذرات التى تعتبر فى حقيقتها مخلوقات فى حيز القوة ، قبل أن تصبح كذلك فى حيز الفعل .

ولله در حكيم المعرة حين قال :

خفف الوطء ما أظن أديم ... الأرض إلا من هذه الأجساد

ورغم أنه لم يدرك من مكونات الأرض إلا وجود الأجساد ، وهى هياكل الآباء والأجداد ، فإنه وقف بذلك على باب السر الإلهى - فما أديم الأرض إلا ذرات تتحول إلى أناسى ، أو حيوانات أو طيور ، أو حشرات أو نبات ، أو ما لا نعلم من خلق الله . فى عالم البكتريا ..

ليس فى الأرض ذرة خامدة ، بل هى ذرات دائرة فى مداراتها مهيأة للوثوب من باطن الأرض إلى ظاهرها . كما أراد الله لها أن تكون - إنسانا أو حيوانا أو نباتا ، أو ما شاء الله مما نعلم أو لا نعلم ، وكل ذلك محكوم بسنة الله ، ذهابا وعودة دائمين فى شكل دائرى زمانى ، ونحن نؤمن بكروية الزمان كما نؤمن بكروية المكان ، وإذا تحققت كروية المكان فى شكلها المادى ، فإن كروية الزمان تتحقق فى شكلها الدائرى (وهو ملحظ لم يفكر فيه أحد ممن تحدثوا فى قصة الخلق) تبعا للقاعدة : ﴿ **منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ إلى أن يأتى وعد الله ، وتقوم الساعة .

إن من رحمة الله العظمى أنه غيب عنا تسعة وتسعين جزءا من العلم ، وسمح لنا بجزء واحد نتعامل به ، ونتراحم ، ونتعايش ، لأنه سبحانه - علم أن كيان الإنسان لا يتحمل أكثر من ذلك ، وإلا انسحق تحت وطأة الفيض المعرفى .. فكل ما نقوله ، بل وكل ما ندركه على أى مستوى من المعرفة - قطرات من ذلك الجزء المسموح به من علم الله .

ولعل إدراك هذه الحقيقة يُطَامن من كبرياء الإنسان وغروره مهما شط به المزار فى الإبحار ، فحسبه أن الله قال : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ .

تقرير مجمع البحوث الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقرير برأى اللجنة العلمية

التى شكلها مجمع البحوث الإسلامية للنظر فى كتاب:

« أبى آدم - قصة الخليقة بين الخيال والحقيقة »

للدكتور / عبد الصبور شاهين

اختار المؤلف لدراسته موضوعا دقيقا يصعب على الباحث أن يصل فيه إلى رأى قاطع ، أو قول فصل ، يوافق عليه سائر الباحثين ، وهو موضوع بدء خلق الإنسان ، ومكان آدم - عليه السلام - فى سلسلة الخلق الإلهى ، وما كان قبله وما كان بعده .. وذلك أن مشهد خلق الإنسان بعيد الغور فى أعماق التاريخ .. وقد وقع حين وقع قبل عصر التدوين والتوثيق .

والنصوص القرآنية فى شأنه - على كثرتها - لا تعالج التفاصيل التى تبين كيفية الخلق ، كما لا تحدد المسافات الزمنية التى أحاطت بمراحل ذلك الخلق .. لذلك لا يمكن لباحث قديم أو حديث أن يقطع فيه برأى حاسم تؤيده نصوص قطعية الدلالة ، أو تؤيده شواهد علمية نظرية أو تجريبية تبلغ فى دلالاتها مرتبة اليقين العلمى ..

ولذلك كله فإن التفصيلات التى يتناولها الباحث بالعرض وإبداء الرأى، وترجيح احتمال على احتمال تكاد تدخل كلها فى نطاق الغيب الذى

استأثر الله ـ سبحانه ـ بعلمه ..

وإذا كان الباحث ملتزما المنهج الذى حدده لنفسه ـ والذى سنشير إليه ـ قد توصل إلى عدد من الآراء التى استخرجها باستنطاقه النصوص القرآنية ـ كما يقول ـ فإن اللجنة لا تخوض فى هذه الآراء ، مصوبة لها أو مخطئة وإنما حدد المجمع مهمتها فى التثبت مما إذا كان الكتاب قد اشتمل على آراء مخالفة لنصوص قطعية الورود وقطعية الدلالة ، أو خالفت شيئا مما علم من الدين بالضرورة من ثوابت المعتقد الإسلامى أو ثوابت الشريعة . لهذا فقد توجهت ـ وهى تقرأ الكتاب وتعيد قراءته ـ إلى مراجعة أمرين اثنين :

أولهما : المنهج الذى حدده المؤلف لنفسه وسار عليه فى بحثه .

الثانى : مضمون بعض الآراء التى انتهى إليها من حيث اتفاقها مع ثوابت المعتقد الإسلامى مما عرف من الدين بالضرورة ..

أما المنهج الذى اتبعه المؤلف فقد وصفه إجمالا فى مقدمة الكتاب ، حيث حدد هدفه من بحثه بأنه محاولة لفهم النصوص التى جاءت فى القرآن الكريم ، وهى قطعية (نظنه يعنى قطعية الورود) ، تروى وقائع قصة الخلق وأيضا للتوفيق بين التصوير القرآنى والاتجاه العلمى فى تصوير الحياة البشرية على هذه الأرض ، ولا حرج علينا فى هذا ما دمنا نرعى قداسة النصوص المنزلة ، وما دمنا لا نخالف معلوما من الدين بالضرورة، وما دمنا نقدم رؤية عقلية تحترم المنطق ، وتستنطق اللغة من جديد ، وتدعم إيمان المؤمنين بما ينطوى عليه كتاب الله من أسرار قد تكون خفيت عن بصائر ذوى التمييز ، ثم أذن الله ـ سبحانه ـ لبعض السر أن ينكشف، وللرؤية أن تتجلى ..

ولا ترى اللجنة فى هذا التوجه مأخذا تأخذه على الباحث ، ما دام يلتزم به ، ولا يخرج عن ضوابطه .. وقد تبين للجنة أن ما يقصده الباحث (بالاتجاه العلمى) فى تصوير الحياة البشرية على هذه الأرض « إنما هو احترام النتائج التى توصلت إليها علوم الجيولوجيا وعلوم الإنسان (الأنثروبولوجيا) والتى اعتمدت فيما وصلت إليه من نتائج على دراسات مستفيضة ومتواصلة لطبقات الأرض وخواصها ، وللحفريات التى ترشد إلى ما عاش على كوكب الأرض من مخلوقات ، والتى تقدر ـ على وجه التقريب ـ الآماد الفاصلة بين مراحل تطور الحياة على ظهر هذا الكواكب » . وتفصيل ذلك وارد فى الفصل الثانى من الكتاب ، والذى اختار له المؤلف عنوان « النظرة العلمية » . وقد لاحظت اللجنة أن المؤلف بعد أن أورد آراء العلماء فى العصور الجيولوجية وآمادها الزمنية لم يفته الالتفات إلى نسبيتها ، وأن ما قال به العلماء فى شأنها لا يبلغ أبدا مرتبة اليقين العلمى ، فهو يصفها جميعا (ص ٣٦) بأنها « جملة من النظريات المشتجرة والمتعارضة التى تركز كلها على تاريخ وجود الإنسان ، وأصل هذا المخلوق ، وهى كلها تؤكد نسبية المعلومات التى تضمنتها ، وأن كل واحدة منها أدلتها التى تستند إليها فى تقرير جوانب التصور الزمنية والخلقية ، ولا ريب أن فى كل منها شيئا من الحقيقة ، وأشياء من الخيال تصب فى بحر الضلال» ، ويزيد الكاتب موقفه هذا وضوحا حين يعقد فى نهاية الفصل الثانى من كتابه ص ٤٢ مقارنة بين دلالات العلم ودلالة القرآن ، فيقول : (لابد أن نسلم بأن معطيات العلم ليست حقائق مطلقة فى أغلب الأحيان ، بل هى رؤى نسبية ، ومن حيث إن الحقل الذى يتوصل إليه مرتهن بقيود من البيئة ، والزمان ، والقدرات الذاتية ، والأدلة

المتاحة.. إلخ .. أما القرآن - وهو الكلمة الإلهية في الخطاب ما بين السماء والأرض ، أو ما بين الأعلى والأدنى - فإنه - ولا شك - يقدم للعقل الإنساني الحقائق النهائية في الموضوع ، ولكن الأجيال تتفاوت في فهم النص المقدس ، حتى ليبدو ما استخرجه الفكر الديني - حتى الآن - من النصوص مناقضا للعلم ، ولا سبيل إلى تحقيق اللقاء بينهما ، ونحن نقرر - بادئ ذي بدء - أن التناقض بين القرآن وما توصل إليه العلم من حقائق نهائية مستحيل ، وإنما يأتي التناقض من جهة أن العلم لم يستقر بعد على بر الحقيقة الكاملة ، بل ما زال يدور في إطار النظريات الظنية الدلالة ، إلى جانب أن التناقض قد يأتي من ضعف التفكير الذي تتم به معالجة الأفكار ..

وترى اللجنة أن هذا المنهج سليم لا عوج فيه ولا مأخذ عليه ، وأنه هو عين المنهج الذي سار عليه علماء الأمة الثقات في سعيهم - عبر العصور - لرفع التناقض الموهوم بين العلم والدين ، وقد بذلوا في ذلك جهودا كبيرة لم ينكرها عليهم أحد ، بل عدوها جهادا علميا محمودا يؤجر عليه أصحابه ، كما وجدوا فيها نفعا كبيرا وفائدة محققة في رد (عوادي التشكيك) التي وجهها بعض الفلاسفة وبعض الملاحدة ضد عقائد الإسلام وشرائعه .

أما ما انتهى إليه المؤلف في موضوع بحثه فيتلخص فيما يلي :-

١ - أن الحياة على هذه الأرض قد سبقت خلق الإنسان بآماد طويلة يصعب تحديدها .

٢ - وأن الإنسان الذي كرمه الله وأمر ملائكته بالسجود له هو امتداد لمخلوق واحد هو البشر ، وليس - كما تقول نظرية النشوء والارتقاء - حلقة في سلسلة تطور كانت القردة فيها حلقة سابقة، ثم تطورت إلى أن صارت (الإنسان) الذي تعرفه .

٣ - وأن الله تعالى خلق (البشر) من طين .. ولكن ليس في آيات القرآن ما يقطع بأن آدم - عليه السلام - قد خلق مباشرة من ذلك الطين .. وأن الاستعمال القرآني لكلمة (بشر) يدل على كائن سابق في الزمان وفي الكيف على (الإنسان) .

٤ - وأنه لا حاجة إلى تحديد حقيقة وطبيعة الطين الذي خلق منه البشر ، فالقرآن يعبر عنه تارة (بالتراب) وتارة بأنه (طين لازب) وثالثة أخرى بأنه (صلصال كالفخار) أو أنه (صلصال من حمأ مسنون) .

٥ - أن الله تعالى قد تناول البشر المخلوق من طين فسواه وصوره ، وأن هذه التسوية لا يلزم أن تكون قد تمت على الفور في أعقاب الخلق ، بل إن الخلق والتصوير مرحلتان في عمر البشرية .. لعلهما استغرقتا بضعة ملايين من السنين ، والتصوير هنا يقابل التسوية في مواضع أخرى ، مع ملاحظة استعمال الأداة (ثم) التي تفيد التراخي بين الأمرين (ص ٨٦) .

ويوجز المؤلف رأيه في قصة الخلق كلها بقوله : إن الإنسان يخرج من البشر ، وأنه (قبل التسوية) لم يكن المخلوق البشري إنسان بل كان مشروع إنسانا في حيز القوة قبل أن يكون إنسانا في حيز الفعل ..

وفي سياق شرحه لرأيه يشير المؤلف إلى عدد من الآيات القرآنية التي يراها تشهد (لهذا الرأي) .. من ذلك إشارته إلى قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين** ﴾ [المؤمنون : ١٢] .. ويقول في

بيان وجه استدلاله بها : وكأن الآية تدفع عن العقل إدماج العمليتين فى عملية واحدة ، فالإنسان خلق من (سلالة) نسلت (من طين) ، أى : أنه لم يخلق مباشرة من الطين ، أما ابن الطين مباشرة فهو (أول البشر) وكان ذلك منذ ملايين السنين . ثم يشير المؤلف إلى قوله تعالى فى سورة السجدة : ﴿ **الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه**﴾ [السجدة : ٧ – ٩] .

ويجمع المؤلف رأيه كله فى قوله ص ٩١ :

« فخلق الإنسان بدأ من طين ، أى : فى شكل مشروع بشرى ، ثم استخرج الله منه نسلا (من سلالة من ماء مهين) ثم كانت التسوية ونفخ الروح ، فكان (الإنسان) هو الثمرة فى نهاية المطاف .. عبر تلكم الأطوار التاريخية السحيقة العتيقة » ..

ويتحدث الكاتب فى سياق هذا الشرح عما يسميه (مراحل التسوية) مستدلا بآيات لا نراها فى الحقيقة شاهدة بالضرورة لما ينتهى إليه من رأى ، فهو – على سبيل المثال – يستدل بقوله تعالى : ﴿ **ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** ﴾ [السجدة :٩]..

وقوله تعالى : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** ﴾ [النحل : ٧٨] فيقول : إن هذا الجعل قد تم خلال مراحل التسوية .. وإن الله – تعالى – جعل للبشر هذه الأدوات فى مراحل التسوية المتعادلة حيث شاءت القدرة أن تزود هذا المخلوق البشرى بما يحتاج إليه من أدوات الكمال .

أما فى خصوص آدم – عليه السلام – وعلاقته بما كان قبله من المخلوقات .. فيقول المؤلف إنه يستطيع أن يقرر – مع علماء الإنسان – أن الأرض عرفت هذا الخلق الذى ظهر على سطحها منذ ملايين السنين . وقد أطلق العلماء على هذا المخلوق – خطأ أو تجاوزا – لفظ (إنسان) فقالوا : إنسان بكين ، أو إنسان جاوة ، أو إنسان كينا .. واستخدام كلمة (إنسان) فى وصف هؤلاء ليس إلا على سبيل التوسع .. وإلا فاللفظ الدقيق بلغة القرآن والذى ينبغى أن يستخدم فى تسمية تلك المخلوقات العتيقة التى تدل عليها الأحاديث هو البشر ..

أما الإنسان فلا يطلق – بمفهوم القرآن – إلا على ذلك المخلوق المكلف بالتوحيد والعبادة لا غير ، وهو الذى يبدأ بوجود آدم – عليه السلام – وآدم على هذا هو أبو الإنسان وليس أبا البشر ، ولا علاقة بين آدم والبشر الذين بادوا قبله تمهيدا لظهور ذلك النسل الآدمى الجديد ، اللهم إلا تلك العلاقة التذكارية ، باعتباره من نسلهم ..

ويضيف المؤلف (ص ١٠٥) : إن خلق الإنسان تم عبر ثلاث مراحل هائلة .. هى : الخلق . التسوية . النفخ .. وأن مرحلة الخلق الأول هى التى أحالت التراب – أو الطين – إلى مخلوق ظاهر (بشر) يتحرك على الأرض بالروح الحيوانى ، كما تتحرك سائر الكائنات .. ثم تناولت القدرة ذلك المخلوق فى المرحلة الثانية بالتسوية أو ما يمكن تشبيهه بهندسة البناء وتجميله ، وهى مرحلة التعديل المادى أو الظاهرى . وقد استغرقت ملايين السنين ، والله أعلم بتفاصيلها . ثم جاءت المرحلة الثالثة ، وهى المتمثلة فى تزويد المخلوق السوى بالملكات والقدرات العليا التى جوهرها (العقل) .. وبذلك اكتمل مشروع بناء (الإنسان) فكان (آدم) هو أول (الإنسان) وطليعة سلالة التكليف بتوحيد الله وعبادته ..

ولهذا لا ترى اللجنة فيما كتبه المؤلف محاولة للتوفيق بين العلم والدين بقدر ما ترى فيه اجتهادا منه فى فهم النص القرآنى ، وهو اجتهاد لا توافق اللجنة المؤلف على بعض أجزائه ، حيث لا يكفى ما ساقه فى هذا الدليل ليقرر النتائج التى انتهى إليها . وإذا كانت اللجنة قد حددت مهمتها – على ما سبق – بأنها بيان ما إذا كان المؤلف قد تجاوز الحد فى تأويلاته للنصوص القرآنية .. تجاوزا يخالف به ثوابت العقيدة أو يتناقض مع ما هو معلوم من الدين بالضرورة ، فإن الذى تنتهى إليه اللجنة أن المؤلف لم يقع فى مثل تلك المخالفة .

وإن كان ذلك لا يعنى أن اللجنة تقره على كثير من التأويلات التى أول بها بعض آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، وعلى الأخص ما أشار إليه من أن آدم – عليه السلام – يمكن أن يكون قد خلق من أبوين ، وما انتهى إليه فى شأن العلاقة بين البشر والإنسان . كما أنها لا تقره على بعض التعبيرات التى استخدمها فى سياق تدليله ، والتى ترى اللجنة أنها غير لائقة فى وصف المشيئة الإلهية فى أمر الخلق ..

وتود اللجنة فى ختام تقريرها أن تنبه إلى أمور ثلاثة :

أولاً : أن مجمع البحوث الإسلامية لا يحجر على اجتهاد المجتهدين أو فكر المفكرين ؛ إذ هو مجمع للبحث العلمى ، يشجع الاجتهاد ، ويحرص على ضبط مناهجه ، ويمارس ذلك الاجتهاد بما يقدمه من دراسات وأبحاث لكبار العلماء المتخصصين فى العلوم الإسلامية على اختلافها .

ثانياً : يؤمن المجمع بحاجة هذا الجيل من المسلمين إلى متابعة الاجتهاد وتقليب النظر فى الآفاق وفى الأنفس ، وإلى مواكبة التطورات

العلمية الهائلة التى غيرت أساليب معيشة الناس وأوضاعهم خلال القرن الذى توشك (الإنسانية) أن تودعه ، وذلك باجتهاد متصل وفقه متجدد ، وبصر دقيق بحاجات الناس التى صارت تتغير بسرعة هائلة (بتغير الأمكنة والأزمنة والأحوال) ، على أن يتم ذلك كله بطبيعة الحال من خلال منهج علمى أصولى دقيق ، لا يخالف فيه الباحث شيئا من ثوابت العقيدة أو الشريعة ، ولا يميل – مهما كانت البواعث – عن قول الحق فى تجرد وصدق وشجاعة .

ثالثاً : يوصى المجمع الباحثين – دون حجر على حريتهم فى اختيار ما يبحثون أمره وما يكتبون فيه – أن يلاحظوا حاجة الأمة إلى علم العلماء واجتهاد المجتهدين لمواجهة المشاكل الكبرى التى تواجه المسلمين – أفرادا وجماعات وشعوبا – فى عصر سقوط الحواجز بين الشعوب ، وتوجه أبناء الحضارات المختلفة إلى التعارف والتواصل ، وفى كل ما يتعرض له الإسلام والمسلمون من سوء فهم بسوء معاملة فى كثير من أقطار الأرض ، وأن يتجنبوا – ما وسعهم – شغل عامة الناس بقضايا قد تكون لها – على أهميتها القليلة – آثار جانبية غير نافعة تشغل الناس عما ينبغى أن يتوجهوا إليه ، أو توقعهم فى حيرة وسوء فهم وجدال طويل فيما لا ينفعهم ..

كما يوصى المجمع الباحثين فى أمور العقيدة والشريعة – خصوصا حين يقتضيهم البحث تناول آيات الكتاب الكريم بالتفسير أو التأويل – أن يتخيروا لآرائهم المصطلحات والتعبيرات التى تناسب مقام الوقوف

الخاشع بين يدى كتاب الله ، حتى لا يتوهم قارىء أو مستمع أن استخدام بعض المصطلحات الشائعة والجارية بين الناس ينطوى على مساس بقدسية القرآن الكريم ..

والله تعالى نسأل أن يعصمنا من الزلل ، وأن يعيننا على حمل أمانة العلم بحقها ، وهو ـ سبحانه ـ يقول الحق وهو يهدى السبيل ..

صادق مجلس مجمع البحوث الإسلامية على هذا التقرير بصيغته هذه فى جلسته يوم الخميس ٢٣ من ربيع الاخر ١٤٢٠ هـ الموافق ٥ من أغسطس ١٩٩٩م التى عقدت برياسة فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف .

تحريرا فى : ـ ١٤٢٠/٤/٢٥ هـ
١٩٩٩/٨/٧ م

الأمين العام
لمجمع البحوث الإسلامية

(سامى محمد متولى الشعراوى)

فهرس الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

رقم الإيداع
٢٢٠٠١/١٨٣٢٢
الترقيم الدولي
977 - 08 - 1031 - 2

مطابع أخبار اليوم ٦ أكتوبر